الوقائع الجدلية

في السيرة النبوية

د. بَلِيْغُ حَمْدِي إِسْمَاعِيْل

الكتاب: الوقائع الجدلية في السيرة النبوية

الكاتب: د. بَلِيْغُ حَمْدِي إِسْمَاعِيْل

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

إِسْمَاعِيْل، بَلِيْغُ حَمْدِي

الوقائع الجدلية في السيرة النبوية / د. بَلِيْغُ حَمْدِي إِسْمَاعِيْل

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٣٧ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٧ – ٢٣٨ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ١٠٠٠٦ / ٢٠٢١

الوقائع الجدلية
في السيرة النبوية

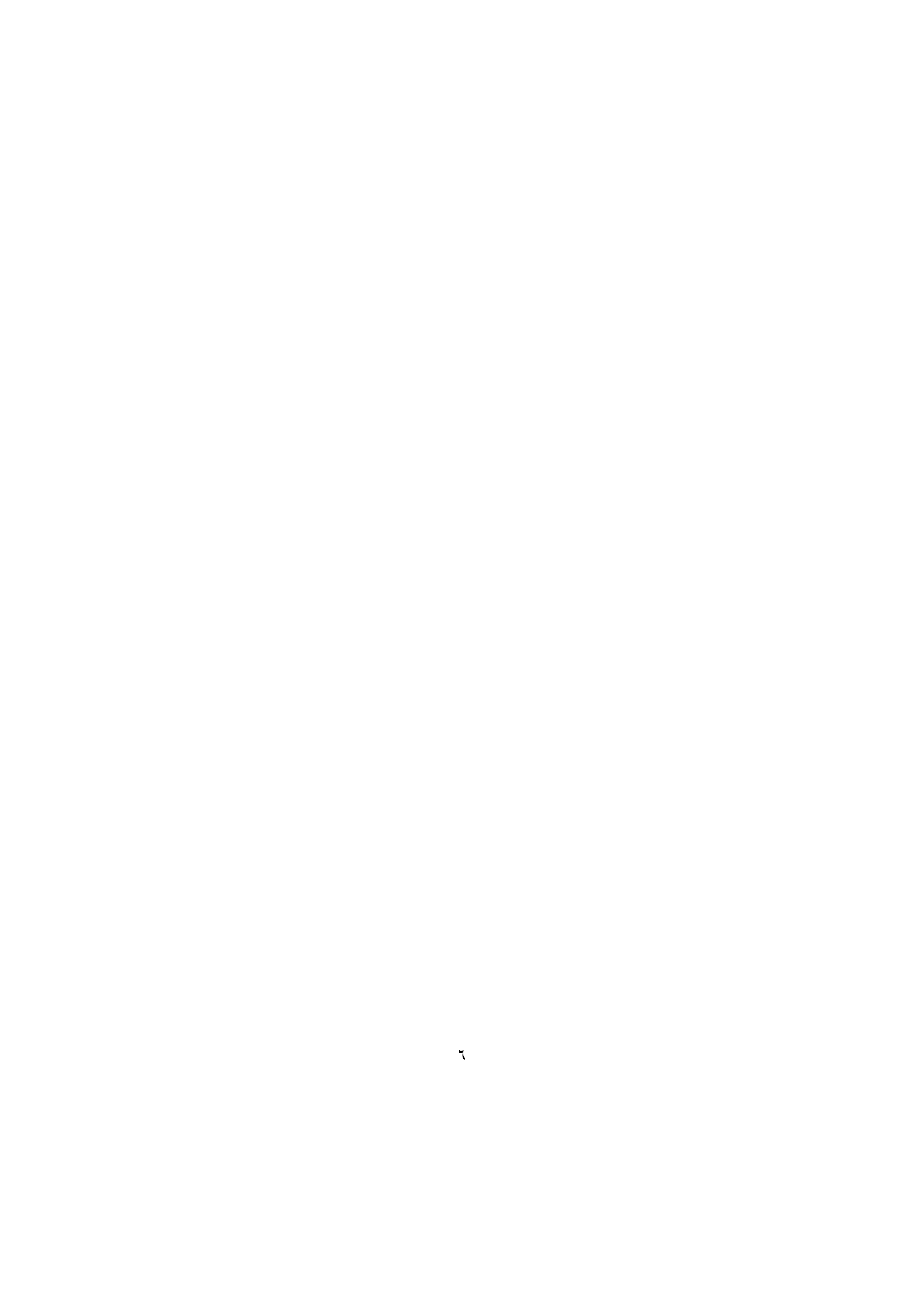




بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾

"سورة الأحزاب * ٥٦"



مفتتح الإحداثيات

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن مُحَمَّداً عبده ورسوله، صلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله، وبارك عليك وعلى آلك وصحبك وكل من أنت أهل له يا حبيب الله، أشهد أنك عبده ونبيه ورسوله، وأشهد أنك أديت الأمانة، وبلغت الرسالة، ونصحت الأمة، وكشفت الغمة، فجزاك الله عنا وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

هذه فصول في السيرة النبوية العطرة لصاحبها ﷺ نرى أنها تبدو غريبة في هذا العصر الذي نعيشه، أي في ظل مناخ عالمي مادي استطاع أن يقهر ويقمع الجوانب الروحية في حياتنا، بل وعمد إلى منع وقمع السرد التأريخي لتاريخنا الإسلامي الرشيق وإعادة قراءة سيرة المصطفى ﷺ، بل وقد سعت المادية جاهدة في إجهاض حركة العقل لصالح أغراض استعمارية خفية.

و قد أشرت من قبل إلى محاولات المستشرقين وأعداء الإسلام في نزع الصلة بيننا وبين تاريخنا وتراثنا الإسلامي القويم، بل ومنع أي محاولات تمكننا بالصلة لسيرة نبينا المصطفى ﷺ ومحاولاتهم المستميتة في تشويه سيرته وقطع صلة الناشئة المسلمة بتراثنا الإسلامي القويم والرشيد.

وهذا الكتاب لا يعد صحفاً متخصصة في رواية التاريخ الإسلامي؛ إذ أن التاريخ وروايته يحتاج إلى منهج صارم وآليات ذات كفاية لا تحقق إلا في ظل مفهوم العصمة والبعد المطلق عن الذلل، لكن المعرفة البشرية تظل دوماً قاصرة وعاجزة، لذا فهذه الصحف المقبلة تحتفي بقدر قليل من التأريخ وليس التاريخ أي ذكر الحدث والواقعة دون الإسهاب في تفاصيلها مع تحليلها والتعليق عليها ومدى الإفادة منها في حياتنا المعاصرة.

وقد جاء عنوان هذا الكتاب بمواضعة مغايرة قد يراها البعض طويلة، أو غير مألوفة، وجاءت التسمية مغايرة لما اعتاد عليه القارئ من عناوين مألوفة لكتب السيرة النبوية، أو تلك التي تروي وتحكي وتجمع من هنا وهناك القصص والحكايا والروايات التاريخية فقط، لأن ما نريد تأكيده ـ هنا ـ أن معظم التفاصيل التاريخية والوقائع التي جاءتنا من جهة الكتب التاريخية والتي نطلق عليها في هذا الكتاب مجازاً النص السابق طفقنا نرددها وتلهج ألسنتنا بذكرها صباح مساء ممارسين عليها كل صنوف التفكير من تعديل، وإضافة، وحذف ما لا يروق لطبائعنا، وعمليات مثل الاستقراء، والقياس، والتحليل، والتصنيف من جهة أخرى دون أن نربط بينها وبين واقعنا ومصير أمتنا العربية الإسلامية.

لذا حرصنا أن نضع عنواناً جانبياً للعنوان الرئيس وهو " في صحبة رسول الله ﷺ " للتأكيد على عزمنا في أن تكون السطور المقبلة التي تتناول بعض الأحداث في السيرة النبوية تأكيداً على معاصرة أحداث السيرة لواقعنا من ناحية، وكذلك توجيه الناشئة إلى ضرورة بقاء الصلة

المستمرة بينهم وبين سيرة الرسول العطرة ﷺ من ناحية أخرى.

وربما ونحن نزعم أننا نهتم بسيرة المصطفى ﷺ لكننا في حقيقة الأمر لم نعي أنه لنا في هذه السيرة العطرة دروس وعبر وتجارب حياة في ظروف مشابهة، لكن الحياة المادية التي تعتري حياتنا بقوة وفجاجة لم تترك لنا فرصة التقاط هذه التفاصيل التي من شأنها لو تمسكنا بها لن نضل أبدا.

وموضوع هذا الكتاب ومادته التي نقدمها للقارئ هو الوقائع والأحداث التاريخية المهمة في السيرة النبوية، التي شكلت ملمحاً رئيساً من ملامح تفكير العقل العربي منذ القدم، ولا تزال تسيطر عليه، لكنه في ظل المتغيرات العالمية المعاصرة استطاعت ألا تدعه يفكر فيها بحدس، أو منطق، أو بنزعة تأويلية.

وربما يجد القارئ هذي الوقائع والأحداث غير مسردة بصورة زمنية " نفسية" متواترة، لأن ما اقتضيناه من منهج لا يخضع لسلطة الترتيب الزمني للأحداث، إنما الحدث ذاته والحالة التاريخية الفاصلة في حياة الإنسانية كلها، والقضية التي تكمن فيها، محاولين تأويله ـ الحدث ـ بصورة تحليلية قد يطمئن القارئ لها، ذلك الذي يركن لسطوة المادية التي حاصرته من كل جانب.

والحق أقول، فأنا من آلاف السائلين، ومعهم أيضاً الذين يوجهون هذا السؤال: هل هناك ضرورة لإعادة كتابة السيرة النبوية؟. فأنا معهم حينما يهرعون إلى المنهج العلمي باستخدام الأسئلة الموجهة غير المبهمة.

وهو طرح مشروع حقاً، ولكن الذي ينبغي علينا أن نؤكده في هذا الصدد أننا نعيد قراءة تاريخنا الإسلامي لا كتابته وروايته، فإعادة القراءة هي إعادة تأويله وتفسيره، لأن التاريخ الإسلامي يحمل دلالات الحاضر أكثر مما يتعلق بالماضي، فنحن لا نتعامل مع قصة مثيرة تدغدغ مشاعرنا وأعصابنا، بل نتعامل مع حالة تاريخية مهمة في تاريخ الإنسانية كلها.

وربما تفسر هذه الحالة التاريخية هذا العجز العربي الراهن والمزمن في مواجهة التغييرات التي تحدث من حولنا، بالإضافة إلى ما تحتاجه الذهنية العربية إلى تجديد وعيها بتاريخها، بل تجديد وعيها بذاتها. وكتابة السيرة النبوية ـ لا بشكلها التأريخي التتبعي من الميلاد إلى الوفاة ـ بأحداثها ووقائعها الجدلية المضطربة والمضطرمة سياسياً واجتماعياً ـ أحيانا ـ في فهمها تساعدنا في تحليل واقعنا الراهن، ونحن بصدد التصدي لمشكلات معاصرة مائجة، وتساؤلات تبحث عن مرفأ لليقين.

لقد استنزف هذا العقل العربي المسلم معظم أفكاره، وخارت قواه التي طالما حاول الاحتفاظ بهيكلها الخارجي،دون أيديولوجية أو إطار مرجعي يمكن الاستناد أو الاعتماد عليه، وكان من الأحرى حقاً استعادة الوعي التاريخي بالمهاد الإسلامي؛ قراءة، وكتابة، وتأويلاً، وتحليلاً، بدلاً من سباق محموم في دفع التهم والنقائص المكتسبة عن الذات.

وهذا الكتاب وفصوله، ما هو إلا التفاتة موجهة للقارئ العربي لإعادة فكره ونظره إلى استقراء التاريخ الإسلامي بوجه عام، وتاريخ الفترة المحمدية على وجه الخصوص، رغبة منا خالصة للاستفادة بسيرة النبي الأكرم ﷺ ، فتعرف سيرة المصطفى ﷺ من الأمور المهمة والضرورية

لكل مسلم، ففيها نفع وبصيرة وعلاج لمشكلات الإنسان المعاصرة.

ولنا أن نشير إلى أن هذا الكتاب لا تتضمن فصوله ذكر أحداث السيرة النبوية لصاحبها ﷺ بتفاصيلها الكاملة وبوقائعها من المهاد إلى الممات، لكن اقتصرت فصول الكتاب على التقاط بعض الوقائع والأحداث ليست التي نراها مهمة . فسيرة الرسول ﷺ كلها محل اهتمام وأهمية . ولكن لما فيها بعض الدروس والعبر المستفادة والمتصلة شديدة الاتصال بأحداثنا المعاصرة، وما ترتبط من مشاهدات اجتماعية وسياسية وتربوية راهنة، لذا فقد لا يرى القارئ أننا نسرد كافة تفاصيل السيرة النبوية من منظورها التاريخي القصصي، بالقدر الذي نقف فيه عند بعض الوقائع التاريخية الموجودة بين ثنايا هذه السيرة العطرة للتأكيد على أوجه الإفادة منها في حياتنا المعاصرة.

إن عظمة الكتابة عن رسول الله ﷺ تتجلى في بيان الأثر الذي أحدثه الرسول ﷺ فينا، لقد شاء الله لنا أن نخصص مساحات عريضة من الكتابة في الحديث عن سيد الخلق معلمنا ونبينا مُحَمَّد ﷺ، ودورنا الآن هو الكشف عن خصائص سيرة النبي الأكرم وبيان فضائله؛ تلك التي شرعنا توصيلها للناشئة والكبار على السواء.

وإننا حينما شرعنا في كتابة أول سطر من سطور هذا الكتاب ما كان قصدنا النيل من كتابات الآخرين، أو في مصادر وآليات نقل الأحداث، بقدر ما ابتغينا أن يكون التاريخ بأحداثه ووقائعه لبناً خالصاً سائغاً للقارئين والمهتمين والمهمومين أيضاً بانتكاسات هذا العقل العربي الذي بات حبيساً للكتب المدرسية التي اكتفت بنقل الخبر دون تحليله،

أو توجيه نظر القارئ إلى أن الخبر بعينه يتضمن فجوة غامضة أو يحتاج إلى تأويل وتفسير.

ولقد استثنينا بعض الأحداث والوقائع الواردة في النص السابق عند ابن إسحاق، وابن هشام في سيرتهما عن الرسول ﷺ لا لعدم أهميتها، ولكن لأننا عزمنا عند كتابة هذه الصفحات إلى انتقاء بعض الوقائع التي جاءت في سيرة الرسولﷺ والتي اتسمت بالجدل في التناول والتأويل، فأعطيناها حظاً وقسطاً كبيراً من التفسير محاولة لفهم النص السابق للسيرة كما كتبها الأوائل.

ولقد حرصنا في كتابنا هذا أن نرد على الإساءات التي لا يزال يوجهها المستشرقون إلى رسول الله ﷺ، وكذلك الافتراءات التي يفترونها على الإسلام الحنيف الذي فرضه الله دينا قيماً للإنسانية منذ آدم (عليه السلام) إلى أن يطوي الله الأرض وما عليها. يقول تعالى في محكم التنزيل:)شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) ((سورة آل عمران / ١٨ ـ ١٩). ويقول تعالى:)وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ (٨٥) ((سورة آل عمران / ٨٥).

كما عمد الكتاب أيضاً إلى إلقاء الضوء على بعض الشخصيات سواء التي عاصرت الرسول ﷺ أو الشخصيات المنتسبة لآل بيته الكرام، آملين من الله عز وجل أن ينفعنا بهذه السطور المقبلة في الاقتداء بسيرة

الرسول ﷺ و نهجه وصحابته الكرام وآل بيته الأطهار.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

د. بليغ حمدي إسماعيل

المنيا الجديدة . مارس ٢٠٢١

الفَصْلُ الأَوَّلُ

عَنْ الذَّاكِرَةِ الحَافِظَةِ

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشـــدني إلى تــرك المعاصـــي

وأخـــبرني بأن العلـــم نــــــور ونــور الله لا يهــدى لعاصــــي

الإمام الشافعي

مقدمة:

وجب علي قبل الخوض في تحليل أبرز الوقائع في السيرة النبوية لصاحبها رسول الله ﷺ أن أشير اختصاراً إلى هبة الله (سبحانه وتعالى) للأمة العربية وللمسلمين الأوائل ألا وهي الذاكرة الحافظة، والتي لولاها لما وصل إلينا خبر واحد من سيرة المصطفى ﷺ، فهذه الذاكرة التي تمتع بها الصالحون من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ومن لحقهم هي التي مكنتنا من معرفة الأحداث والوقائع التي جرت لرسول الله ﷺ، لذا كان من الأحرى أن نقدم للقارئ المسلم نبذة علمية مختصرة عن الذاكرة والعمليات الذهنية التي تنظمها، إعلاء لجهود الأوائل وحمداً لنعم الله على أمة الإسلام.

طاقة اسمها الذاكرة:

الذاكرة، هي مركز العمليات المعرفية ومحورها التي تؤثر على كل ما هو معرفي، وعلى كافة الأنشطة العقلية، وعلى كافة مكونات نظام تجهيز ومعالجة المعلومات. ولقد بحث كثير من علماء النفس في عملية الاسترجاع، التي ترادف أحياناً التذكر، وانتهى الكثير منهم إلى القول بإن هذه العملية لا يمكن أن تتم إلا إذا افترضنا أن التجارب والخبرات التي مر بها الفرد تترك أثراً ما في جهازه العصبي، أو بعبارة أخرى تترك نوعاً من الصور الذهنية التي تطبع على المخ بطريقة معينة.

وهناك أربعة نماذج للذاكرة يحاول كل منها أن يفسر كيف تعمل الذاكرة من حيث المكونات والوظائف. النموذج الأول ينسب لكل من أتكنسون وشفرن (١٩٦٨م)، ويركزان على التمييز بين الذاكرة قصيرة المدى، والذاكرة طويلة المدى، ودور كل منهما في تجهيز ومعالجة المعلومات، ويقوم على افتراض أن الذاكرة تتكون من ثلاثة أنماط هي:

- الذاكرة الحسية أو المخزون الحسي.
- الذاكرة قصيرة المدى.
- الذاكرة طويلة المدى.

كما يشتمل على عمليات الضبط والتحكم، مثل تكرار أو ترديد المعلومات للاحتفاظ بها في الذاكرة، والتي يستخدمها الناس كاستراتيجيات لتجهيز ومعالجة المعلومات.

أما النموذج الثاني، فهو نموذج تولفنج (١٩٨٤م)، ويقوم على

افتراض وجود مخازن لذاكرة الأحداث لتخزين المعلومات المتعلقة بالأحداث والوقائع، ومخازن لذاكرة المعاني لتخزين المعرفة المنظمة المتعلقة بالعالم من حولنا، والذاكرة الإجرائية التي تتعلق بكيفية إجراء أو عمل معالجة للأشياء.

بينما يسمى النمط الثالث من أنماط الذاكرة مدخل مستويات التجهيز والمعالجة، ويقترح هذا المدخل أن الطريقة أو الأسلوب الذي من خلاله تجهز أو تعالج المادة موضوع التعلم يؤثر على الاسترجاع اللاحق لها. والنموذج الرابع والأخير هو مدخل التجهيز الموزع الموازي، ويفترض أن ينظر إليها باعتبارها شبكة من الترابطات والوصلات عبر النيرونات العصبية التي تشكل وحدة عمل الذاكرة.

وتبدو قيمة هذه النماذج السابقة التي عرضناها في أنها تحاول تبسيط وتبسيط وتنظيم نمذجة ذلك المفهوم المحير البالغ الأهمية المسمى بالذاكرة، وأن هذه الأطر التي تقدمها تلك النماذج النظرية تكون موجهة للبحوث والدراسات التي يمكن إجراؤها في هذا المجال.

وللذاكرة ثلاثة أنواع، النوع الأول منها يسمى الذاكرة الحاسبة، ومهمتها استقبال المعلومات وتحملها في صيغة خام، أو غير معالجة نسبياً أي دون إخضاعها للتجهيز أو المعالجة، وتشمل الذاكرة الحسية البصرية، كما تسمى الذاكرة التصويرية، وتحمل المادة أو المثير أو المعلومة بعد اختفاء المثير لجزء من الثانية أو للزمن الذي يسمح بتجهيز ومعالجة تلك المعلومة بعد اختفاء المثير الخاص بها.

أما الذاكرة الحسية السمعية، وتسمى الذاكرة السمعية، وتحمل المادة أو المثير أو المعلومة لمدة ٢ على ٣ من الثانية بعد اختفائها، ولذا فهي تمثل أهمية خاصة عندما تقوم بتجهيز المعلومة المنطوقة والمسموعة. وتعرف الذاكرة الحسية أيضاً بالمسجل الحسي.

ومن أنواع الذاكرة القصيرة، والتي سبق أن أشرنا إليها، وهي ذاكرة تفقد المعلومات وتخفو ويحدث لها نسيان سريع ربما بعد ثوان قليلة من استقبالها، ما لم يتم تسميعها أو تسجيلها أو معالجتها، وحجمها وفقاً لرؤية علماء النفس المعرفي تتحدد سعتها بـ ٧ + ٢ من وحدات المعلومات. ويرى بعض علماء النفس أن هذا الحجم يرتبط تماماً بزمن النطق وطول الكلمات، وطبيعة المادة التعليمية، ومدى قابليتها للتذكر، بالإضافة إلى أنها تتأثر بعدة عوامل منها مستوى قلق الفرد ومستوى ذكائه. وبالنسبة للذاكرة طويلة المدى، فإنها تعد أهم مصادر المعرفة المشتقة، وأنماط التعلم والتفكير المعاد صياغته وتجهيزه ومعالجته، وهي تقف خلف كافة عمليات الحفظ والتذكر والتفكير، والاستراتيجيات المعرفية وحل المشكلات.

وأهم ما يعنينا ونحن بصدد الحديث عن كتابة السيرة النبوية ومحاولات المتقدمين في تسجيلها وتدوينها سواء من السماع أو الرواية أو النقل ـ أن الذاكرة طويلة المدى تمثل ذات الإنسان وماضيه وسيرته الذاتية، وتؤثر في حاضره ومستقبله، وإدراكه واستقباله للعالم من حوله. ولو فطن كتاب السيرة وحفظتها أن دور الذاكرة طويلة المدى مهم جداً في استيعاب المعلومات وتخزينها بالسرعة والدقة لتغير الكثير مما جاءنا في ثنايا كتبهم وأوراقهم.

وقد يجد القارئ نوعاً من الملل وهو يطالع السطور السابقة التي

تتحدث عن الذاكرة وأنماطها وأنواعها، ولعله فطن قليلاً أننا نتحدث في صلب دراستنا عن السيرة النبوية وقصة تدوينها، وهي الإشادة والإشارة إلى ملكة الحفظ وقوة الذاكرة التي تمتعت بعا العقلية العربية الصافية الخالية من كل شوائب المادية،، لا سيما أن الخطوب والأحداث التي عصفت بدولة الإسلام منذ أيام الخليفة عثمان بن عفان لم تكن تسمح بالتدوين والجلوس في استقرار وسكينة لكتابة جميع التفاصيل المتعلقة بالسيرة النبوية العطرة لصاحبها ﷺ، ورغم تلك الخطوب استطاع الثقات أن يقوموا بعمل عظيم وهو حفظ وتسجيل أحداث السيرة النبوة المطهرة لتصير بين أيدينا سائغة سهلة يسيرة.

ولكن لم تلتفت هذه النظريات الغربية التي عصفت بالعقول إلى الهبة والمنحة الإلهية التي وهبها الله (سبحانه وتعالى) والتي استطاعت أن تحتفظ بكل صغيرة وكبيرة مما سمعت أو رأت من أحداث ووقائع وربما كانت الذاكرة الشفاهية أكثر ثقة وثبتاً وثباتاً عند آبائنا العرب الذين بفضل ذاكرتهم الحافظة البعيدة عن شوائب المادية استطعنا أن نتعرف على الكثير والكثير من أيام العرب ووقائعهم السابقة.

استراتيجيات تحسين الذاكرة:

١ . استراتيجية التصور العقلي: وتشير إلى التمثيلات العقلية للأشياء، والأحداث والمواقف التي ليس لها وجود فيزيقي، وهي استراتيجية قوية لرفع كفاءة الذاكرة، وزيادة فعاليتها.

٢ . استراتيجية مفاتيح الكلمات: وتشير إلى الربط بين الكلمات غير

المألوفة المراد تعلمها، وتفيد الدراسات إلى أن الطلاب الذين استخدموا هذه الاستراتيجية في تعلم اللغات استرجعوا مفردات اللغة بمعدلات تفوق أقرانهم الذين استخدموا استراتيجية التسميع أو التكرار عدة مرات.

٣ . استراتيجية إحلال الأماكن: وتقوم على محاولة ربط الفقرات المراد تعلمها بسلسلة من الأماكن و المواقع الطبيعية، وهي تجمع بين التصور العقلي والمعينات والمنشطات الأخرى، وهي من أقدم الاستراتيجيات لتنشيط الذاكرة.وتقوم هذه الاستراتيجية على القواعد الأساسية التالية:

* تصور سلسلة من الأماكن الطبيعية التي تتعاقب مكانياً.

* اشتقاق صورة بصرية أو تخيلية تمثل كل فقرة من الفقرات المراد حفظها وتذكرها.

* ربط الفقرات بالأماكن المختلفة بها في الذاكرة.

٤ . استراتيجية التنظيم: وهي محاولة إيجاد أو اشتقاق تنظيم أو ترتيب للمادة المتعلمة، وهي تقوم على تنظيم وحدات المادة أو الوحدات المعرفية الأقل عمومية (النوعية) داخل مفاهيم أو أطر مفاهيمية أكثر عمومية أو ذات رتب أعلى.

٥ . استراتيجية التوليف القصصي: وتقوم على محاولة توليف قصة تربط بين مجموعة من الكلمات أو المفاهيم المراد حفظها، وتذكرها بحيث تؤلف هذه الكلمات معه بعضها البعض قصة ذات معنى.

وقد أنعم الله على الإنسان بذاكرة قوية وقدرة خارقة على الحفظ،

ووهبه عقلاً لم يتمكن العلماء حتى الآن من معرفة أسراره. للعقل سعه محدد لا تتسع ومع تزاحم المعلومات وتكدس الاحداث بداخله وعند اضافة معلومة جديدة للعقل يبدء تلقائياً بمحو اول معلومة ولكن أولئك الحفظة الكرام منَّ الله عليهم بذاكرة قوية استطاعت أن تلتقط كل التفاصيل التي سمعوها أو قرأوها بفضل ترك المعاصي أولاً، كما أن حفظ القرآن الكريم مكنهم من قوة الحفظ والإدراك وسعة البصيرة .

وقدكشفت دراسة علمية حديثة عن أن حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة يقوي الذاكرة وينمي مدارك الأطفال واستيعابهم لحفظ وإمكانية استرجاع المعلومات بصورة أكثر من غيرهم ممن لا يحفظون القرآن، بالإضافة إلى تمتعهم بقدر كبير من الاتزان النفسي والاجتماعي وقدرة كبيرة على تنظيم الوقت والاستفادة منه.

وأشارت الدراسة التي أجرتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة الى أهمية دفع الأطفال والشباب في سن مبكرة الى حلقات ومدارس تحفيظ القرآن الكريم نظراً لسهولة الحفظ في هذه السن والقدرة على الاستيعاب السريع والاسترجاع.

وأكدت الدراسة على أهمية دور الأسرة في تحفيز أبنائها وبناتها على حفظ القرآن الكريم وتشجيع التنافس بين الأبناء والبنات داخل الأسرة الواحدة في حفظ أكبر قدر من آيات وسور وأجزاء القرآن الكريم، حيث أثبتت الدراسة أن أكثر من ثمانين في المائة من حفظة القرآن الكريم من البنين والبنات عرفوا طريقهم إلى حلقات التحفيظ والمدارس القرآنية بتشجيع من الآباء والأمهات وأن أكثر من خمسين في المائة منهم لهم

أشقاء وشقيقات يحفظون القرآن الكريم أو أجزاء منه.

والآن أيها المسلم، أنا معك قلباً وقالباً في شعورك النفسي بكثرة وطول ما أورته من معلومات قد تراها لأول وهلة بعيدة الصلة عن موضوعات السيرة السهلة اليسيرة والممتعة أيضاً، فمالك أنت وهذه الاستراتيجيات المعرفية الضيقة التي تضفي نوعاً من التوتر والضيق والسأم، وربما الضجر على النفس الساكنة، وما استطعت أن أتوصل إليه هو هدف محاولة إعادة تجهيز الذهنية التاريخية للعقل العربي تلك التي اعتادت ألا ترهق نفسها بالتأويلات والتنظيرات، وكيف كتب هذا، ولماذا دون ذلك، إلى آخره.

ولكن رأينا أنه من الواجب العلمي أن نضع هذه الصورة العلمية لعمل وأداء الذاكرة، وأنواعها، وأنماطها المسلكية، لتتعرف كيف كتبت السيرة النبوية، ومنهجيتها، فهل يمكنك الآن وقد قرأت الكثير عن سيرة الرسول ﷺ أن تدرك عظمة العقل والذاكرة التي وهبها الله تعالى لعقول صافية ولقلوب مطمئنة استطاعت أن تعي ثم تحفظ ما وصل إلى آذانها شفاهة من قصص نبوية وأحداث تاريخية عن حوادث شتى، ورغم ذلك استطاعت تلك العقول الصالحة أن تنقل لنا ما روي وشوهد مع ضبطه ضبطاً دقيقاً دونما لغط أو تشويه.

ولكن كان علينا أن نخاطب الغرب وأنصاره من العلمانيين وأتباعهم بلغتهم التي يعرفونها وهي لغة النظريات المجردة ولنشير إليهم بأن الله (تبارك وتعالى) منح كل قوم نعمة اختص بها، ومن نعم الله تعالى التي لا تعد ولا تحصى على العرب الذاكرة الحافظة واللغة الفصيحة المبينة.

الفصل الثاني

السِّيَاقُ التَّارِيْخِيُّ لِكِتَابَةِ السِّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ

دوافع الاهتمام بسيرة الرسولﷺ:

بين الخصومة والكراهية والحقد الدفين ومشاعر أخرى سوداء، وبين محبة وشوق وحنين وإخلاص وشعور بالعظمة وإحساس بعبقرية الشخصية استقرت دوافع الاهتمام عن سيرة الرسول الأكرمﷺ حسبما أننا من المشتاقين إليه محبة وشوقاً وغراماً وشفاعة.

ولا أدري ما فائدة عمل خصوم الإسلام عموماً، والرسول الأكرم ﷺ واتهاماتهم الزائفة القذرة إلى رسول رب العالمين. ولقد طالعت ما كتبه محررو دائرة المعارف الفرنسية لاروس **LaRousse** عن أشرف الخلق أجمعين بقولهم المغلوط: " بقي مُحَمَّد مع ذلك ساحراً ممعناً في فساد الخلق لص نياق، كردينالاً، لم ينجح في الوصول إلى كرسي البابوية فاخترع دينا جديداً لينتقم من زملائه".

وسأترك للقارئ سهولة تأويل ما قرأه، وكأن مُحَمَّداً ﷺ طالب في مدرسة يغار من زملائه فأراد الانتقام منهم، منتهى السفه، ويكفينا شرف ومنعة أننا وإخواننا من الباحثين الجادين لا ولن نهتم بالرد على مثل هذه الأمور التي يريد الغرب وأعداء الإسلام والحاقدون عليه أن يجرونا إلى هاوية الجدل والعبث الفكري واللغط التاريخي بالرد والمناظرة واستخدام آليات

حوار فاشلة سلفاً، لقد اخترتنا لأنفسنا دوراً نراه عظيماً وحسبنا، وهو أننا لا نكتب إلا للقارئ العربي، وعن سيرة المعصوم مُحَّد ﷺ ومن أراد أن يعرف سيرته فعليه بمعرفة لغتنا وقبول منطقنا، ومن هنا نبدأ.

فلقد قدمنا الكثير من التنازلات الفكرية والتاريخية للغرب بدعوى حوار الحضارات، وحوار الثقافات، ودعوى الحريات ومزاعم تعرف الغرب،ومالنا وهذا، من يرد أن يعرفنا فليقبل هويتنا الفكرية وآلياتها، والمناحي المميزة لمنطلقاتنا الفكرية.ولقد أشرت إلى هذا في مقالي بجريدة اليوم السابع القاهرية في أغسطس ٢٠٠٩ م "ما لا يعرفه أوباما عن الإسلام". ومن الدوافع التي تدفع كثير من الباحثين إلى كتابة السيرة النبوية أن هذه السيرة وهذه الحياة مثالية في كل جوانبها على الإطلاق، ففيها القدوة الحسنة، والمثل الأعلى، يقول الله تعالى:

) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١) ((سورة الأحزاب / ٢١).

كما أنه الأعظم والأبلغ تأثيراً في حياة التاريخ البشري،فلقد تحقق له النجاح الكامل على المستويين الديني والدنيوي، وليس موضوعنا الآن أن نذكر كتابات المستشرقين وعلماء ما بعد البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهادي أمثال وليام ماكنيل وجون ماسرمان، ومايكل هارت، وغيرهم ممن اسردوا ضرورة الحديث عن سيرة الرسولﷺ الذي أثر في الدنيا والتاريخ والأخلاق والبشرية جميعها.

كتاب السيرة النبوية:

يجمع المؤرخون على أهمية الذاكرة الحافظة التي امتاز بها العرب، دون السند والدليل والمنهج العلمي الدقيق الذي يعتمد على الأدوات والمعايير، إلا أننا لا نستطيع أن نختلف في فترة صدر الإسلام وعهود الخلفاء الراشدين، فلا شك أن رجال هذه الفترة هم شهود وحفاظ السيرة، وأعتقد أنه لم تكن هناك حاجة ضرورية تدعوهم لتدوين أحداث ووقائع سيرة الرسول ﷺ لاستغنائهم بالمشاهدة والحفظ، وانشغالهم بالغزوات و الفتوحات الإسلامية.

وقد بدأت حركة التدوين والتسجيل للسيرة النبوية بدأت مبكراً على يد "أبان بن عثمان" وهو نفسه ابن الخليفة الراشد "عثمان بن عفان" وهو من أعلام السيرة النبوية ورواية الحديث الشريف، وقد تتلمذ على يديه كثيرون من كبار المحدثين والفقهاء من أمثال مُحَمَّد بن مسلم بن شهاب الزهري،وكذلك مُحَمَّد بن إسحاق بن يسار المطلبي، ولكن للأسف قد ضاعت مؤلفاته كما ضاع تراث الإسلام من قبل.

ومن رجال التأليف أيضاً " عروة بن الزبير " وهو من رجال الطبقة الأولى من كتاب المغازي والسير، وأبوه هو "الزبير بن العوام بن خويلد"، ولقد شهد عروة الفتنة الكبرى التي عصفت بالمسلمين، وهي فتنة خلافة عثمان بن عفان وما بعدها. واشتهر أيضاً بأنه أحد فقهاء المدينة السبعة الكبار، وكان قد شغلته السياسة كثيراً عن طلب العلم أيضاً، وهو كسابقه لم تصلنا مؤلفاته أيضاً.

ومنهم أيضاً " شرحبيل بن سعد" وهو من كتاب المغازي. ووهب بن منبه وهو من مواليد اليمن وليس المدينة، لذلك فهو مختلف عن الثلاثة السابقين، وكان ثقة واسع العلم، ويعتبر من العلماء الموسوعيين الذين تناولوا موضوعات شتى. ويوجد مجلد في مجموعة البرديات الموجودة بمدينة " هيدلبرج " الألمانية، ويقول عنه المستشرق الألماني " بيكر ": إنه يرجع أنه يحتوي على قطعة من كتاب المغازي لوهب بن منبه.

ومن رجال التأليف في المغازي والسير الأوائل " مُحَّد بن مسلم بن شهاب الزهري"، وهو من كبار التابعين وأعلامهم، ويعتبره المؤرخون من أعظم مؤرخي المغازي والسير وإليه يرجع الفضل في تأسيس مدرسة المدينة التاريخية، وقد امتاز مُحَّد بن شهاب الزهري عن معاصريه بكثرة الكتابة والتدوين واقتناء الكتب، ولقد ضاع ما كتبه ودونه الزهري بنفسه، وإلى ابن إسحاق يرجع الفضل الأكبر في حفظ علم أستاذه الزهري.

وينبغي علينا أن نشير إلى أن الزهري قام ببحث واسع لجمع تراث الرسولﷺ من أفواه شهوده، ومن هنا تأتي أهمية الزهري من أنه أول من دون الحديث، فهو إذن يمثل مرحلة فارقة حاسمة، وهي مرحلة الانتقال من التراث الشفوي إلى التراث المكتوب بالنسبة للتاريخ الإسلامي. ولكن الذي ينبغي ملاحظته أن هذا الانتقال قد تم داخل ارتباط السياسة والسلطان، فالزهري كان ذا علاقة وثيقة بخليفتين أمويين هما عبد الملك وابنه هشام قد قاموا برعاية عمل الزهري.

محمد بن إسحاق المطلبي:

من الضروري أن نعرف سيرة ابن إسحاق لأنها المصدر الرئيس للسيرة النبوية بصورتها التأريخية، وكل من كتب في السيرة في السيرة النبوية نقل عنه، لكننا سنعرضه من زاويتين اثنتين؛ الزاوية الأولى هي سيرة الرجل وما كتبه عنه أفاضل شيوخنا السابقين من مآثره ومناقبه. والزاوية الثانية هي تناوله من ناحية المنهج العلمي وفنياته وأدواته التنظيرية والتطبيقية.

فمن الزاوية الأولى نجد من يطالعنا بأن مُحَّد بن إسحاق هو إمام الأئمة والعمدة في ميدانه، وأكبر علماء السير والمغازي على إطلاقهم. وأقوال العلماء فيه ـ حقاً ـ مستفيضة، فهو ـ كما يذكرون ـ أحد أوعية العلم، وحبر في معرفة المغازي والسير.

ومُحَّد بن إسحاق ـ كما يسرد الدكتور عبد الشافي مُحَّد ـ هو مُحَّد بن إسحاق ابن يسار بن خيار، وقيل يسار بن كوتان المطلبي بالولاء، المديني، نسبة إلى مدينة رسول الله ﷺ، وكان جده يسار من أهل قرية عين التمر بالعراق، وقد وقع في أسر المسلمين عندما قام خالد بن الوليد بفتح عين التمر، وأرسل يسار بن خيار مع غيره من الأسرى إلى المدينة المنورة.

الأمر المهم الذي نريد أن ندركه هو معرفة أن ابن إسحاق أدرك بعض الصحابة ممن طالت أعمارهم، فالكتب تقول أنه " رأى " أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، وكذلك تتلمذ على يد كبار التابعين وعلماء المدينة المنورة، ومنهم القاسم بن مُحَّد بن أبي بكر الصديق، وأبان بن عثمان بن عفان، ومُحَّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب أكرم الله وجهه،

وأبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، ونافع مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان الأنصاري، وغيرهم.

ورحلة ابن إسحاق العلمية معروفة ومنظورة للرائي، فقد رحل إلى مصر والعراق، وما إن سقطت دولة بني أمية سنة ١٣٢هجرية، وقامت دولة بني العباس، حتى رأينا ابن إسحاق يرحل مغادراً مدينة رسول الله ﷺ إلى العراق حتى استقر في مدينة بغداد، أو كما قيل عنها المدينة المدورة أو مدينة السلام، أو مدينة المنصور. تلك المدينة التي خلبت الألباب وخطفت من العلماء الأبصار، فهي حاضرة الإسلام ومقر العلماء والشعراء وأهل الأدب.

والمشهود لنا أن ابن إسحاق اتصل برأس السلطة ببغداد، ومؤسسها أبي جعفر المنصور، حتى عرف أن كتاب المغازي أو ما شاع ذكره بـ "سيرة ابن إسحاق " قد وضعه استجابة لرغبة المنصور وطلبه لابنه مُحَمَّد الذي عرف بعد ذلك بالخليفة المهدي.

هذا من حيث الجانب الأول من حياة ابن إسحاق، أما الجانب الثاني فمجمله اتهامات وربما افتراءات كاذبة، وشكول صراعات مضطرمة،ولأننا نستهدف الحق معرفة ويقيناً كان علينا أن نسرد بشكل مقتصد عن هذي الشكول المتسارعة حوله. فهو يؤكد عند كل نازلة وفاصلة فساد العهد الأموي برمته، ونحن ندحض قوله باستحالة وجوب العيوب والنقائص وحدها في حياة الأمم والعهود دونما إيجابيات وإصلاحات لعل أبرزها سعة الفتوحات الإسلامية، حيث إن الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي أبقى الفتوحات، وإذا قبلنا الرأي بفساد كل

خلفاء بني أمية كما زعم ابن إسحاق ومن ورائه ابن هشام، فهذا استخفاف بعقولنا واحتقار وإهانة لأنفسنا.

كما أن محنة التاريخ الشفاهي فكرة سيطرت على ابن إسحاق، فقصد في مجمل سيرته إلى البنى الحكائية للقص النبوي دون بعض التكليف بمعرفة تفاصيلها وأخبار أصحابها ومناسبة القول بخلاف الواقدي الذي سيأتي ذكره بعد قليل. بالإضافة إلى ما عاب السيرة من عدم توثيق الأشعار بها.

الواقدي:

كان علينا واجب الإشارة إلى أحد أعلام السيرة النبوية، والذي لم يلق نصيباً من الشهرة التي لقيها مُحَمَّد بن إسحاق، وهو مُحَمَّد بن عمر بن واقد، الملقب بالواقدي، وهو مولى من الموالي.

ويعتبر الواقدي من أبرز رجال السير والمغازي، ولقد ولد الواقدي بالمدينة المنورة سنة ١٣٠ هـ، وتوفي ببغداد سنة ٢٠٧ هـ، ودفن ـ كما يروي تلميذه مُحَمَّد بن سعد ـ في مقابر الخيزران، ومن أشهر من لقيه الواقدي في رحلته طلباً للعلم مالك بن أنس، وسفيان الثوري.

واتصل الواقدي بالخلفاء العباسيين، بداية من الخليفة هارون الرشيد وتذكر القصة سبب تعارف كل منهما على الآخر، والتي أوردها الدكتور عبد الشافي مُحَمَّد في كتابه الماتع " أوائل المؤلفين في السيرة النبوية " أن أمير المؤمنين هارون الرشيد لما حج في أو عام من خلافته سنة ١٧٠ هـ، قال ليحيى بن خالد البرمكي: ارتد لي رجلاً عارفاً بالمدينة والمشاهد، وكيف كان

نزول جبريل (عليه السلام) على النبي ﷺ، ومن أي وجه كان يأتيه، وقبور الشهداء، فطفق حيى يسأل عن الرجل الذي تتوفر فيه تلك الصفات التي طلبها وحددها هارون الرشيد، فدله الناس على الواقدي.

والواقدي ـ نفسه ـ يروي ذلك الحدث، فقال: " كلهم دله علي، فبعث إلي فأتيته، وذلك بعد العصر، فقال لي: يا شيخ، إن أمير المؤمنين ـ أعزه الله ـ يريد أن تصلي العشاء في المسجد، وتمضي معنا إلى هذه المشاهد، فتوقفنا عليها ففعلت، ولم أدع موضعاً من المواضع، ولا مشهداً من المشاهد إلا مررت بهما عليه". ورغم صلة الواقدي القوية بالبرامكة إلا أن مكانته في بلاط خلفاء بني العباس ظلت كما هي، ولم ينله ضرر بسبب تلك الصلة بعد نكبتهم، بل ازدادت مكانته وثقة الخلفاء فيه إلى الحد الذي جعل المأمون يوليه القضاء في عسكر الهدى، وكان المأمون كثير الإكرام له، ويداوم على رعايته.

وكان الواقدي غزير الإنتاج، كثير التأليف، فله أكثر من أربعين كتاباً في المغازي والسير والتاريخ، وهو الأمر الذي يزيدنا غموضاً في عدم ذيوع شهرته كسابقه ابن إسحاق. وربما اتصاله بالبرامكة هو الذي جعل شهرته ومكانته في العصور التي تليه تقل وتخفت، لكننا نرى أن الواقدي أكثر دقة من الناحية المنهجية والعلمية في تناول الأحداث التاريخية عن ابن إسحاق، وابن هشام، فهو يحاول أن يتحرى الدقة في المعلومات التي يوردها في نصه، عن طريق أقارب وأصحاب وأتباع وتلاميذ الشخصيات الواردة بكل حادثة يذكرها.

وهو ـ نفسه ـ يحدث ذلك قائلاً: " ما أدركت رجلاً من أبناء

الصحابة، وأبناء الشهداء ولا مولى لهم إلا سألته، هل سمعت أحداً من أهلك يخبرك عن مشهده، وأين قتل ؟ فإذا أعلمني مضيت إلى الموضع فأعاينه، ولقد مضيت إلى المريسيع فنظرت إليها، وما علمت غزاة إلا مضيت إلى الموضع فأعاينه". وكانت كتب الواقدي مصدراً أصيلاً لكل المؤرخين الذين جاءوا بعده، فما من مؤرخ إلا واقتبس من كتبه، ولكن لسوء الحظ ضاعت معظم هذه المؤلفات العلمية العظيمة التي خلفها، ولم يبق من كتبه سوى كتابي فتوح الشام، والمغازي. ومع الواقدي أصبح الاعتماد أساساً على المكتوب، وهذا ما يؤكده مترجموه من أنه كان يمتلك مكتبة بها ألاف الكتب وغلامين يكتبان الليل والنهار.

ولعلنا أكثر تحمساً للواقدي عن ابن إسحاق رغم شهرة الأخير بين العامة والعموم والسواد، لأنه أكثر إخباراً عن سيرة الرسول ﷺ في المدينة، وهو أميل في إخباره إلى الفقه والحديث من ابن إسحاق، وهو ـ أحياناً ـ يرجع إلى مادة علمية مكتوبة في صحف رآها واعتمد عليها، كما أنه يمتاز عن سابقيه بالدقة في تعيين تاريخ الحوادث. ويكفي الواقدي فخراً وشرفاً أن الإمام مالك بن أنس كان يثق في رواياته، بينما كان لا يثق في روايات ابن إسحاق، وقد لقبه الفقيه مُحَمَّد بن الحسين الشيباني (من فقهاء الحنفية) بأمير المؤمنين في الحديث.

السيرة النبوية والخطاب التاريخي:

لابد من التمييز بين نوعين من الخطاب؛ خطاب يحمل أمراً شرعياً مقدساً أو خبراً من السماء، وكما يقول ابن خلدون هذا واجب تصديقه. وخطاب يحمل واقعات من عالم الطبيعة، ولكل من الخطابين مقياس

للصدق. وابن خلدون في مقدمته يحيل الصدق إلى العالم الذي يتبع كل خطاب، فالعالم القدسي حق، وهو منهج مشروع واضح مثبت بصحته من داخله، فهو من عند رب العالمين، إذن فهو خطاب مقدس أمين لا يتغير يظل كما هو، فهو خطاب فوق الزمان، وهو في طبيعته حدث في الزمان.

والخطاب المقدس تحمله لغة، وهو ما ينطوي في حد ذاته على استلاب بالنسبة لحال الصفاء، وحين يقول مسلم إن القرآن لا يحاكى، فهو يعني أن علاماته تأتلف ائتلافاً خاصاً يرتفع فيها الدال ليتحد بالمدلول المقدس.

وبقي لنا أن نشير إلى دور القصص الشعبي في صياغة بعض كتب السيرة النبوية، ولاشك في أن الخيال الشعبي الذي صاحب الكثير من المذاهب والفرق الإسلامية صاغ العديد من القصص التي لم نرها في الكتب الصحيحة للسيرة النبوية والتي أراد بها أعداء الإسلام النيل منه ومن نبينا الكريم ﷺ ولكن هيهات.

والدور الشعبي الذي لعبه هؤلاء المؤلفون هو تأييد لوجهة نظربعض الفرق الدينية والفكرية، وهو مشهد متصل للصراع الفكري والديني بين هذه الفرق، وأكاد أجزم بأن ما جاء إلينا من أخبار غريبة غير متواترة وأخبار صراعية هي لا شك من رحم الصراع المأساوي بين بعض الفرق والتيارات وكذلك المحاولات المشبوهة التي قام بها المستشرقون.

وكما يؤكد المؤرخ سيد خميس في أن الخليفة معاوية أدرك مبكراً السحر الإعلامي للقص الديني، وقوة تأثيره في نفوس العامة، فبعث في

طلب القصاص وجمعهم إليه، وبالطبع أجرى عليهم الرواتب من بيت المال، ثم أوعز إليهم بالدعاء إليه على المنابر وأداء بعض القصص والروايات التي تعضد ملكه وسلطانه.

وفي العصر العباسي كانت الفتنة أشد وأعظم خطراً، لاسيما مع ظهور الصراع العربي الفارسي، فقد أضاف الرواة الفارسيون القصص العجيبة التي لا وجود لها في كتابنا هذا، وكان من البدهي أن يستجيب العامة لهذه القصص الخيالية وان يشغلوا بها انشغالاً عظيماً. ويضرب الدكتور مُحَمَّد النجار مثلاً على ما جاء به القصاص في ذلك العصر في موضوعين كانا أثيرين عندهم، هما قصة الإسراء والمعراج، ومرويات الشيعة عن آل البيت، وخاصة فيما يتصل بمقتل الإمام الحسين، فقد لعب بالعاطفة دوراً عظيماً وخطيراً في التأليف القصصي على حساب الوقائع التاريخية.

وإذا دققنا النظر لاستقرأنا الخلط بين الحقائق التاريخية والقصص الخيالي والخرافات، وتسرب الخيال الشعبي الطائفي إلى كثير من أحداث ووقائع السيرة النبوية فمالت هذه الوقائع إلى الأساطير والمبالغات اللامعقولة. ومن هنا أصبح من الصعب إيجاد وسيلة منهجية دقيقة ترجح ما هو تاريخي على ما هو خرافي إلا ما رحم ربي. وعلى هذا نجد الكثير من القصص التي تحتاج إلى ضبط تاريخي بالمعنى العلمي في بعض الكتب التي تناولت سيرة رسول الله ﷺ، ولقد اجتهدنا جهد مشقة وضعف في نقل الأحداث التاريخية من مصادرها الصحيحة مع تحقيق تواترها وإثبات صحة ناقلها أيضاً.

الفصل الثالث

مَهَادُ النَّسَبِ الشَّرِيْفِ

﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾

مقدمة:

كان لابد قبل الحديث عن سيرة رسول الله ﷺ أن نعرض سرداً غير مخل بنسب الرسول ﷺ لاسيما اتصال هذا النسب الشريف بخليل الرحمن إبراهيم وولده إسماعيل (عليهما السلام).

وقد جاء في السيرة النبوية لابن إسحاق عن ذكر سرد النسب الشريف من مُحَّد ﷺ إلى آدم (عليه السلام): " مُحَّد بن عبد الله بن عبد المطلب، واسم عبد المطلب ـ شيبة ـ ابن هاشم، واسم هاشم ـ عمرو ـ بن عبد مناف المغيرة ـ بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر، بن كنانة بن خزيمة بن مدركة عامر ـ بن إلياس مقوم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب بن نايت بن إسماعيل بن إبراهيم (خليل الرحمن) بن تارح ـ وهو آزر ـ بن ناحور بن ساروغ بن راعو بن فالخ بن عبير بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس النبي، وكان أول نبي أعطي النبوة وخط بالقلم، بن يرد بن مهلبل بن قينن بن يانش بن شيث بن آدم"

ويكفينا بالنسب هنا عند إسماعيل وأبيه إبراهيم ﷺ لأن ما بعد ذلك من أسماء ربما لا نستطيع ضبطه وتوثيقه تاريخياً لبعد الزمان، وإنه لمن الصعوبة والمشقة البحث عن نسب أبعد من ذلك للمغالطة والقصور في الحفظ.

إبراهيم عليه السلام:

هو إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ، وقد حكى الحافظ بن عساكر في ترجمته لإبراهيم الخليل من تاريخه أن اسم أمه "أميلة"، وقال الكلبي: اسمها " بونا" بنت كربتا بن كرثي، من بني أرفخشذ بن سام بن نوح،، وروى ابن عساكر عن عكرمة أنه قال: كان إبراهيم يكنى " أبا الضيفان "، والذي يعنينا في هذا المبحث هو ذكر إبراهيم عليه السلام وأخباره في القرآن ـ المصدر الإسلامي الأول الذي لا يعتريه الشك ـ وصراعه ضد الشرك والوثنية.

موطن إبراهيم عليه السلام:

تعددت الروايات والأخبار التي تروي وتسرد ذكر موطن إبراهيم عليه السلام، وفي هذا إشارة واضحة لكيفية عمل العقل العربي ودور الذاكرة الحافظة، فابن عباس يقول إن إبراهيم ﷺ ولد بغوطة دمشق، في قرية يقال لها (برزة) في جبل يقال له (قاسيون)، ثم قال: " والصحيح أنه ولد ببابل، وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه صلى فيه إذ جاء معيناً للوط عليه السلام. والصحيح الذي تؤكده المصادر التاريخية نقلاً عن ذاكرة العرب الحافظة أن إبراهيم (عليه السلام) ولد بأرض بابل، ويؤكد ذلك ابن

عباس بقوله: " وكانت سارة عاقراً لا تلد. قالوا: وانطلق تارخ بابنه إبراهيم وامرأته سارة وابن أخيه لوط بن هاران، فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين وهي بلاد بيت المقدس، فأقاموا بحران وهي أرض الكلدانيين في ذلك الزمان.

وكانت أرض الجزيرة والشام أيضاً كما يذكر ابن كثير، وكانوا يعبدون الكواكب السبعة، والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين، يستقبلون القطب الشمالي ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع الفعال والمقال، ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها، ويعملون لها أعياداً وقرابين.

قصة إبراهيم في القرآن الكريم:

لإبراهيم عليه السلام قصة عظيمة في القرآن الكريم، فله موقف بارز مع الأصنام، ولقد أزال الله به تلك الشرور وفضح زيفهم، وأبطل به الضلال وإثمه، يقول الله تعالى) وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنْ اللاَّعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنْ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا

إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمْ الأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَةِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) (.(سورة الأنبياء / ٥١ . ٧٣).

وكل ما يهمنا من ذكر إبراهيم ﷺ ونسبه للرسول ﷺ دعوته للتوحيد وعبادة الله وحده، وإخلاص النصيحة لأهله، وقد أحب الله تعالى إبراهيم (عليه السلام) ووصفه بصفات عظيمة وكريمة، يقول تعالى:) إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾، ووصفه الله . تبارك وتعالى . بالحلم واصطفاه وقربه، واختاره، وجعله إماماً للناس وجعل في ذريته النبوة والكتاب.

وإبراهيم ﷺ منذ طفولته حنيفياً، مائلاً عن الشرك وأهله إلى توحيد الله، مثله مثل رسولنا الأكرم مُحَمَّد ﷺ، وقد كانت أول دعوته لأبيه قائلاً) يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾، واستمر إبراهيم في دعوته ونصيحته لأبيه، يقول الله تعالى) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنْ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدْ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنْ

الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً (٤٦) قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً (٥٠) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾.

ودعوة إبراهيم ﷺ لأبيه تشير إلى قيم نبيلة وآداب رائعة للحوار والدعوة والنصيحة، فنرى كيف دعا أباه للتوحيد والحق بعبارات لطيفة ومعان سامية، وكيف حذره، وكيف خاف عليه من غضب الله، ورأينا كيف زاد إبراهيمﷺ خيراً عندما قال له كما جاء في القرآن الكريم:) سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً(، قال ابن عباس: أي لطيفاً.

وقال الإمام البخاري: حدثنا إسماعيل بن عبد الله، حدثني أخي عبد الحميد، عن ابن أبي ذئب، عن سعيد المقري، عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ قال: " يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني ؟ فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب، إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون فأي خزي أخزى من أبي هذا ؟ فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحت رجليك ؟ فينظر فإذا هو بذبح متلطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار ".

ومن شمائل نبوة إبراهيم ﷺ بره بأبيه، والقرآن الكريم كان حريصاً

على التأكيد على هذه القيمه لإبراهيم(عليه السلام) ولغيره من الأبياء المصطفين الأخيار، ومن أمثلة هذا البر ما جاء في القرآن الكريم من آيات مثل قوله تعالى:) ربنا وتقبل دعاء (٤٠) ربنا اغفر لي ولوالدي (٤١) ((سورة إبراهيم /٤٠– ٤١)، وقوله تعالى:) واجعلني من ورثة جنة النعيم (٨٥) واغفر لأبي إنه كان من الضالين (٨٦)((سورة الشعراء /٨٥ –٨٦). وقول الله تعالى في سورة الممتحنة:) وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك((سورة الممتحنة /٣ – ٤).

وذكر القرآن الكريم آيات عديدة تضمنت معاني بر الأبناء بالآباء لاسيما أنبياء الله تعالى مثل بر سليمان (عليه السلام) بوالديه في قوله تعالى:) فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي((سورة النمل /١٩)، وبر يحيى (عليه السلام) بوالديه في قول الله تعالى:) يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً (١٢) وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً (١٣) وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً (١٤) ((سورة مريم /١٤.١٢). وأشار القرآن الكريم إلى بر نوح (عليه السلام) بوالديه في قوله تعالى:) رب اغفر لي ولوالدي ((سورة نوح /٢٨).

المجادلة:

قصة أخرى مهمة عن إبراهيم (عليه السلام) وهي مناظرة قوامها المجادلة الصواب، وهي مناظرة ذكرها الله (تبارك وتعالى) في كتابه الكريم، وهي مناظرة مع ملك جبار متمرد، ادَّعى لنفسه الربوبية، فناظره إبراهيم (عليه السلام) وبين ووضح سفهه، وجهله، وعدم رجاحة عقله، وذكر علماء

التاريخ والأنساب أن هذا الملك هو ملك وحاكم بابل، واسمه النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، وقال غير مجاهد كما ورد في الصحائف التي تناولت سيرة إبراهيم (عليه السلام) أن اسمه نمرود بن فالح بن عابر بن صالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح.

وذكر مجاهد وغيره، أن النمرود هذا من الملوك الذين حكموا الأرض مثل بختنصر، وبختنصر هذا من أهل بابل أيضاً، أمر الناس أن يسجدوا له، وامتنع " دانيال " وأصحابه، فألقاهم في النار.

والنمرود هذا كما تروي كتب التاريخ استمر في حكمه أربعمائة سنة، وقد دعاه إبراهيم (عليه السلام) إلى عبادة الله ونبذ الشرك وعبادة من دون الله، والقصة معروفة في القرآن الكريم، وقد بينت جهل النمرود بالإحياء والإماتة، ومدى ضيق أفقه وعلمه، وقد جادله إبراهيم (عليه السلام) بقوة وبنصر من الله (عز وجل) حينما قال له:) قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾، وحينئذ انقع كلام النمرود وبهت وسكت، ولهذا قال الله تعالى في محكم التنزيل:) فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين﴾.

وقد ذكر السدي أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم (عليه السلام) وبين النمرود يوم خرج من النار، رغم أننا لا نملك نصاً يفيد أن تلك المناظرة وقعت غذ ذلك اليوم.

وحينما أحس النمرود بالعجز وكسل العقل وبرودة التفكير، وبهت، منع عن إبراهيم (عليه السلام) الطعام وأعطاه للناس، فملأ إبراهيم كيساً

من تراب، ولما جاءت سارة وفتحت الكيس وجدت به طعاماً لا تراباً، فلما سألها: من أين هذا الطعام ؟ قالت: من الذي جئت به. فشكر إبراهيم ربه وعرف أنه رزقه فسجد لله شكراً وحمداً.

رحلة إبراهيم (عليه السلام) إلى مصر:

نزل إبراهيم (عليه السلام) منطقة تسمى بحران مهاجراً من بلده، بعد أن اضطهده قومه بسبب دعوته لعبادة الله وتوحيده،وكان مع إبراهيم (عليه السلام)في رحلته هذه زوجه سارة، وهي ابنة عمه كما تروي بعض المصادر التاريخية، ولوط (عليه السلام) الذي آمن معه. وقد ظل إبراهيم (عليه السلام)في منطقة بحران فترة ليست بقليلة ؛ يدعو الناس إلى عبادة الله وحده، وينهاهم عن عبادة الأوثان والأصنام، ومما لاشك فيه أن خليل الرحمن إبراهيم قد لاقى ألواناً كثيرة ومتنوعة من العذاب والقهر، ثبته الله وحده فيها وعند مواجهته لها.

ولاشك أن إبراهيم (عليه السلام) حينما فكر في الهجرة إلى مصر كان من اهم دوافعه لها كثرةالاضطهاد الذي لحق به وبأهله، وهذا يجعل منهجنا صائباً حينما خالفنا بعض الكتابات التقليدية التي تناولت اليرة النبوية، في أننا بدأنا الكلام بإبراهيم (عليه السلام)، من حيث الروابط والعلاقات والوشائج الواضحة والمشتركة بينه وبين رسولنا الكريم ﷺ ؛ من دعوة كليهما الناس للتوحيد وعبادة الله وحده ونبذ الشرك والوثنية، وكذلك هجرة كليهما.

وحينما فكر إبراهيم أن يهاجر إلى مصر كان يحكمها في تلك الفترة

ملك من ملوك الهكسوس، ولسوء الحظ أنه لا توجد آثار تاريخية تجسد هجرة الخليل إبراهيم (عليه السلام) إلى مصر. وربما جرت محاولات جاهدة لطمس رحلة إبراهيم إلى مصر، رغم أن المصريين القدماء (الفراعنة) كانوا مولعين بتسجيل كل صغيرة وكبيرة عن حياتهم وحياة الوافدين إلى أراضيهم.

فالذين يكيدون للإسلام يعملون منذ زمن بعيد، ولقد تشابكت الحركات والموجات التي هدفت إلى النيل من الإسلام وجذوره العميقة، لاسيما تلك الجذور التي تربطنا وخليل الرحمن إبراهيم (عليه السلام)، ويا للأسف أن يتفرغ الأثريون عن الكشف عن رحلة توت عنخ أمون وقناعه بالذهبي، وصراع رمسيس الثاني مع خصومه، وهل قتل مسموماً، أو خانته زوجه، وعن فيضان النيل وتماسيحه، وتركنا المهم والضروري مما ترك الفراعنة إما في أيدي مستعمرين، أو عملاء، أو علماء يريدون اقتناص المعرفة لأنفسهم فقط.

وخلاصة قصة وجود إبراهيم (عليه السلام) أن فرعون مصر عرف عنه أنه كان يضم كل امرأة جميلة إلى نسائه، وكانت زوج إبراهيم (عليه السلام) من أجمل نساء الأرض، فأراد أن يستحوذ عليها، ولكن الله (عز وجل) حفظها من كل سوء وضرر، وتروي قصص السير والتراجم القليلة التي تناولت بشئ بسيط من الرصد هذه القصة كما يلي:

"....، واستدعى فرعون مصر إبراهيم عليه السلام و سارة إليه، فقال إبراهيم (عليه السلام) لزوجه سارة:إذا سألك الفرعون(ملك الهكسوس الغازى لمصر فى القرن السابع عشر قبل الميلاد) عنى فقولى له إنى أخوك،وهذا ليس كذبا لأنك أختى فى دين الله، وعندما سأله

الفرعون(ملك الهكسوس) عن سارة،قال إبراهيم: إنها أختى عندئذ أمر الفرعون(ملك الهكسوس الغازى لمصر) بضمها إلى حريمه وأن تزين بأفخر الثياب وأحلى الحلى فزادت جمالا على جمالها الأخاذ، ورآها الفرعون فخطفت عقله، ومد يده ليمس وجهها الجميل الرائع فشلت يده وحاول تحريك يده ولم يفلح، فطلب منها العفو فعفت عنه،فاستطاع تحريك يده، وكررالمحاولة مرتين من شدة جمالها فشلت يده وحاول تحريك يده ولم يفلح فطلب منها العفو فعفت عنه،فاستطاع تحريك يده، فأحس بالخوف والرهبة ونظر إليها نظرة تقدير واحترام وتوبة فاعتذر إليها وطلب منها العفو،وأمر بردها لأخيها إبراهيم وأن يعتنوا بها عناية فائقة ورعاية كريمة وهدايا ثمينة ووهبها جارية جميلة اسمها (هاجر).والسيدة هاجر، كانت يوما زوجة ملك مصر السابق الذى قتله ملك الهكسوس أثناء الدفاع عن مصر.

وأقام إبراهيم (عليه السلام) وسارة وهاجر فى مصر، وكان موضع رعاية وعناية وحب الفرعون (ملك الهكسوس)، وكان يدعو إلى ربه وتوحيده، وخرج من مصر بعد أن زاد ماله وضاعفه الله له، وبعد أن أحس بأن الحسد والحقد من بطانة الشر قد زاد فعرف أن مصر ليست بدار أمان وعاد إلى الشام فى أرض فلسطين وأقام مع قوم فى واد سبع ويسمى بئر سبع ثم رحل وظل إبراهيم عليه السلام يثمر أمواله وتزداد الأنعام والماشية ودبت الغيرة فى القوم فطلبوا منه أن يرحل عنهم وأخذ إبراهيم عليه السلام وهو خليل الرحمن أهله والأنعام والماشية ورحل إلى الشمال فى مكان أصبح يسمى باسمه مدينة الخليل وبالقرب منها مدينة بنى فيها

بيت المقدس ثانى مسجد بعد المسجد الحرام وسميت مدينة القدس.

إلى مكة:

لما تزوج خليل الرحمن إبراهيم (عليه السلام) السيدة هاجر المصرية التي ولدت له إسماعيل (عليه السلام) سار بهما من فلسطين واتجه بهما نحو الجنوب، حتى صحراء الحجاز، حتى وصلوا جميعاً إلى وادٍ غير ذي زرع، ولا ماء، ولا حياة، والقصة هنا معلومة ومعروفة لكافة مسلمي الأرض من مشارقها إلى مغاربها، وكيف استغربت السيدة هاجر أن يختار نبي الله إبراهيم (عليه السلام) هذا المكان لطفل رضيع وأمه الضعيفة، ولكن هي إرادة إلهية، يقول الله تعالى:)رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)﴾.(سورة إبراهيم /٣٧ ـ ٤١).

وعاد إبراهيم (عليه السلام) إلى بلاد الشام، وظلت هاجر ورضيعها إسماعيل في خيمتهما وحيدين، وكفى بالله أنيساً، حتى إذا نفد الماء في السقاء عطشت، وعطش رضيعها، فانطلقت تبحث وتنقب عن ماء لوليدها، فمشت حتى صعدت جبل الصفا، ووقفت تنظر في الأفق هنا وهناك، فلم تر أحداً، ثم هبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادي،

رفعت طرف ذرعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليه، ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: " فلذلك سعى الناس بينهما ".

ورجعت هاجر إلى رضيعها، وهي تظن أنه قد هلك من شدة العطش، فوجدته يضرب الأرض بقدميه، وقد نبع الماء من تحته، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وتزمه من هنا وهناك ولذلك سميت بئر زمزم.

بناء البيت العتيق:

لقد غاب إبراهيم (عليه السلام) سنوات كثيرة، وبعد غيبته هذه رجع فوجد ولده إسماعيل (عليه السلام) جالساً بالقرب من زمزم يبري نبالاً وهو يستعد للخروج إلى رحلة للصيد، فلما استراح إبراهيم (عليه السلام) أخبر ولده بأمر بناء الكعبة، وهو بيت الله الحرام، وشرع إبراهيم وولده إسماعيل (عليهما السلام) في بناء بيت الله الحرام والقرآن الكريم يوضح القصة كاملة، يقول تعالى:)وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ

أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) ((سورة البقرة / ١٢٥ ـ ١٢٩).

وأتم إبراهيم (عليه السلام) بناء البيت، حتى لم يتبق إلا موضع حجر، فقال إبراهيم لابنه: يا بني، ائتني بحجر مميز، أجعله علماً للناس، فجاءه إسماعيل (عليه السلام) بحجر لم يرض عنه وقال له: إنني أريد حجراً آخر. فلما عاد إسماعيل (عليه السلام) وهو يحمل حجراً، وجد أباه يضع في الموضع الخالي حجراً أسود، فاندهش إسماعيل (عليه السلام) وقال لأبيه: يا أبت من أتاك بهذا الحجر ؟، قال (عليه السلام): يا بني أتاني به من لم يكلني إليك.

يقول الله تعالى:)وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرْ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ

اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِ الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٥) ((سورة الحج / ٢٦ ـ ٣٥).

وقد ذكر رسولنا الكريم ﷺ فضل إبراهيم (عليه السلام) في مواضع كثيرة، نورد منها ما تم ذكره في صحيح البخاري ومسلم:عن أنس بن مالك قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا خير البرية، فقال ﷺ: ذاك إبراهيم عليه السلام ". (مسلم ٢٣٦٩).

عن قيس بن حفص وموسى بن إسماعيل قالا: حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا أبو قرة مسلم بن سالم الهمداني، قال: " حدثني عبد الله بن عيسى سمع عبد الرحمن بن ليلى قال: " لقيني كعب بن عجرة فقال: ألا أهدي لك هدية سمعتها من النبي ﷺ ؟ فقلت: بلى، فاهدها لي، فقال: سألنا رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله ﷺ كيف الصلاة عليكم أهل البيت، فإن الله قد علمنا كيف نسلم ؟ قال ﷺ: " قولوا اللهم صل على محمَّد وعلى آل محمَّد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ". (البخاري ٣٣٧٠).

وعن عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن منصور عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول: " إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامة من شيطان وهامة، ومن كل عين لامة ". (البخاري ٣٣٧١).

الفصل الرابع

حَيَاةُ العَرَبِ وحضارتهم وأقوامهم

طبيعة بلاد العرب:

بلاد العرب، هي شبه جزيرة في الطرف الجنوبي الغربي لقارة آسيا، إحدى قارات العالم القديم، يحدها شمالاً الشام وفلسطين والجزيرة العربية، وجنوباً خليج عدن والمحيط الهندي، وشرقاً خليج عمان والخليج الإسلامي، وغرباً خليج ومضيق باب المندب، والبحر الأحمر. ويبلغ طول جزيرة العرب من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها نحو ٢٣ درجة أو ٢٥٠٠ كيلو متر، ويبلغ مجموعة مساحة شبه الجزيرة العربية مليون ميل مربع.

وبلاد العرب عبارة عن هضبة تنحدر نحو الشرق، وجوها حار، وهي موطن الساميين، وتنقسم إلى عدة أقسام ؛ أشهرها: اليمن، والحجاز وتهامة ونجد واليمامة وبلاد البحرين. وتنقسم بلاد اليمن إلى خمسة أقسام هي: حضر موت وشِحر ومهرة وعُمان ونجران. ويقال إن سبب تسمية (حضر موت) بهذا الاسم هو أن حضر موت بن قحطان كان أول من نزلها، وكان اسمه عامراً، وإذا حضر حرباً أكثر فيها القتل، فصاروا يقولون عنه: حضر موت، فأطلق هذا الاسم على الأرض التي كانت تسكنها قبيلته، ثم أطلق بعد ذلك على جهة متسعة شرقي عدن بالقرب من البحر وهي كثيرة الرمال.

ويقال إن بها قبر هود (عليه السلام) وهو ما أورده الشيخ مُحَمَّد رضا في كتابه " مُحَمَّد رسول الله ﷺ "، أما لفظة اليمن فيروي أن سبب التسمية بذلك لوقوع اليمن عن يمين الكعبة إذا استقبلت المشرق.

أما بلاد الحجاز، فهي واقعة في شمال اليمن، شرقي البحر الأحمر، وتمتد إلى الخليج العقبة، وعلى ساحلها جزائر صغيرة تلتجئ إليها صغار السفن عند الحاجة، وسمي حجازاً لوقوعه بين نجد وتهامة.

ولم يعرف القدماء من جزيرة العرب سوى الشئ القليل، ولم يتحدث هيرودت الملقب بأبي التاريخ عنها في أكثر من بضع كلمات، وربما يرجع هذا إما للتعصب أو عدم حيادية المؤرخ. أما معرفة الرومان لجزيرة العرب كانت ضعيفة للغاية، وحاول الرومان غير مرة استعمارها التي كانوا يعتقدون أنها تنتج التوابل والعطور والنسائج والأحجار الكريمة، ولكنهم وهم الذين اتسموا بالقوة في هذه الحقبة الزمنية لم يتمكنوا أن يقهروا قبائل البدو العربية التي احتمت بكثبان الرمال وجو البلاد.

ولم يتوغل الأوروبيون فيها إلا حديثاً كما أشار غوستاف لوبون في كتابه " حضارة العرب "، ولم يعرف عنها الأوروبيون قبل نيبوهر الذي زارها سنة ١٧٦٢م، سوى ما أخذوه عن جغرافي العرب أو عن بطليموس من المعارف المبهمة، والخريطة التي رسمها نيبوهر هي أولى الخرائط العلمية عن جزيرة العرب، مع اقتصاره على السياحة في قسم من بلاد اليمن.

وانقضى نصف قرن بعد نيبوهر من غير أن يقوم سائح آخر بارتياد جزيرة العرب، فلما كانت سنة ١٨١٥م، استأنف بركهارد البحث، فجمع

أخباراً ومعلومات تكاد تكون مهمة . بالرغم من وصف العرب لها بأنها أنباء رائعة . عن جزيرة العرب، ولاسيما مكة والمدينة، وما قامت به مصر حوالي تلك السنة (١٨١٥م) من غزو ضد الوهابيين كان فاتحة بحث واسع عن مختلف أقسام جزيرة العرب.

أقوام العرب:

كثر الحديث عن أقوام العرب، أو السكان الذين سكنوا بلاد العرب، واختلاف التحديد يرجع إلى عوامل متباينة منها دقة البحث التاريخي، أو اختلاف المنهج العلمي، فقد قسم القدماء جزيرة العرب إلى ثلاثة أقسام ؛ بلاد الحجر العربية (بطرا)، وبلاد العرب السعيدة، وهي القسم الجنوبي الغربي منها، والصحراء العربية وهي قلبها وشرقها.

ويشير غوستاف لوبون إلى أن الفارق الأساسي الوحيد بين العرب هو ما أيدته تقاليدهم وطرق معيشتهم وهو تقسيمهم إلى أهل بدو وأهل حضر، ويجب ألا يغيب هذا التقسيم الجوهري عن ذهن الباحثين في تاريخهم، وإن تقسيم العرب إلى أهل حضر وأهل بدو يطابق تقسيمهم إلى ثلاثة عروق هي:

- العرق الذي باد وعفا أثره قبل الإسلام.
- العرق المؤلف من أبناء قحطان الذين استقروا ببلاد اليمن والذين هم أقحاح العرب.
- العرق المؤلف من ذرية إسماعيل (عليه السلام).

وذهب بعض الباحثين إلى أن العرب ومن حولهم كانوا من أصل

واحد، ثم تحضر من حولهم وتخلفوا هم، وقد تحضر سكان الفرات، وتحضر وادي النيل، وظل العرب تغلب عليهم البداوة لما حاصرتهم جبالهم وبحارهم.وهؤلاء البدو انقسموا إلى قبائل، والقبيلة هي الوحدة التي انبنى عليها كل نظامهم الاجتماعي، وهذه القبائل كما صورت كل كتب التاريخ كانت في صراع ونزاع دائمين، وقد تتحالف قبيلة مع أخرى أو مع مجموعة من القبائل.

وهناك تقسيم ثالث اعتاد أن يقسم العرب إلى قسمين: عرب الشمال وهو من نسل إسماعيل ﷺ، وعرب الجنوب من نسل يقطان المسمى " قحطان "، وترجع هذه العقيدة إلى ما ورد في التوراة في سفر التكوين ويسمى أهل الجنوب عادة اليمنيين أو القحطانيين، وأهل الشمال العدنانيين أو النزاريين أو المعديين.

وشاع واستقر بين المؤرخين تقسيم أقوام العرب إلى ثلاثة أقسام بحسب السلالات التي انحدروا منها وهي:

- العرب البائدة: وهم العرب الذين لم يتمكن البحث العلمي وأدواته من الحصول على بيانات ومعلومات وأخبار كافية عن تاريخهم وهم عاد وثمود وطسم وجديس.
- العرب العاربة: أو العرب العرباء وهم شعب قحطان، ومهدهم بلاد اليمن واشتهر منها قبيلتان هما: حمير وأشهر بطونها زيد الجمهور، وقضاعة، والسكاسك. وقبيلة كهلان،وأشهر بطونها " طئ " وأغلبهم سكن الجبلين أجا وسلمى وهما المعروفان بجبل " شمَّر " واشتهر ذكرها حتى

كان الفرس يسمون كل العرب طيئاً.ومن كهلان أيضاً: عاملة وجذام، والأزد.

. العرب المستعربة: وهم العرب المنحدرة من صلب إسماعيل(عليه السلام) وتسمى العرب العدنانية، وأصل جدهم الأعلى إبراهيم (عليه السلام).

وقد جاءت قبيلة يمانية وهي قبيلة جرهم الثانية فقطنت مكة بإذن من أم إسماعيل (عليه السلام) وقد كانوا في أودية أطراف مكة. وقد تعلم إسماعيل (عليه السلام) العربية من جرهم أنفسهم، ولما أعجبهم زوجوه امرأة منهم، وبعد أن ماتت أمه السيدة هاجر، جاءه خليل الرحمن إبراهيم (عليه السلام) فلم يجده ووجد امرأته فسألها عنه وعن أحوالهما، فشكت إليه ضيق حياتهما، وقد أوصاها بالصبر والطاعة، والقصة ذاتها معروفة بأن تخبر زوجها بأن يغير عتبة بابه، وبالطبع فهم إسماعيل (عليه السلام) ما أراده أبوه (عليه السلام) فطلق امرأته، وتزوج ابنة مضاض بن عمرو كبير جرهم وسيدهم.

وتخبرنا المصادر التاريخية بأن إسماعيل (عليه السلام) قد رزقه الله من ابنة مضاض باثني عشر ولداً ذكراً منهم: نابت، وقيدار، وأبائيل، ومبشام، ومشماع، ودوما، وقيدمان، وميشا، ونفيس، ويطور. والمهم أنه تشعبت من هؤلاء اثنتا عشرة قبيلة سكنت كلها مكة مدة، وكانت التجارة هي حرفتهم من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ومصر، ثم انتشرت هذه القبائل في أرجاء الجزيرة وخارجها.

وبقي إسماعيل (عليه السلام) وولداه نابت ثم قيدار على إمرة مكة، ثم رجع أمر مكة إلى مضاض بن عمرو الجرهمي جدهما، ثم غلبتهم خزاعة بعد بغيهم

وصار أمر مكة لها حيث استمرت ثلاثمائة عام، إلى أن جاء قصي بن كلاب الذي تزوج ابنة حليل بن حبشة الخزاعي، وانتقل أمر مكة له بعد حرب عنيفة احتكموا بعدها ليعمر بن عوف أحد بني بكر فقضى بأن قصياً أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة.

قصي بن كلاب:

قصي بن كلاب، أبوه كلاب، واسمه حكيم، ولقب بكلاب لأنه لأنه كان يكثر الصيد بالكلاب، وهو الجد الثالث للسيدة آمنة أم الرسول ﷺ، وقيل إنه أول من سمى الأشهر العربية المستعملة الآن. أما قصي فقد ولد حوالي سنة ٤٠٠ ميلادية واسمه زيد، وقد جمع الله به القبائل من قريش في مكة بعد تفرقها، فأنزلهم أبطح مكة، بعد ما كان بعضهم يسكن الشعاب ورءوس الجبال بمكة، وقد نظم قصي أمر مكة، وكان أول من أوقد نار المزدلفة، وكانت توقد حتى يراها ويشاهدها من دفع من عرفة، كما أنه أول من جدد بناء الكعبة من قريش بعد إبراهيم (عليه السلام).

وكان لقصي من مظاهر التشريف والسمو في الجاهلية حجابة البيت، وهي حجابة الكعبة، أي لا يفتح بابها إلا هو، وهو الذي يلي أمر خدمته وسدانتها، وسقاية الحاج، وهي أنهم كانوا يملأون للحجاج حياضاً من الماء ويحلونها بشئ من التمر والزبيب، ويشرب منها كل من يرد إلى مكة، كما كان له رفادة الحاج، وهي طعام يصنع للحاج على شكل الضيافة.

ولا شك أن المستقرئ لتاريخ العرب قبل مُحَمَّد ﷺ يلاحظ أن قصياً قد جمع أهله من كل صقع، وأتى بهم من كل مكان بعيد وأصبحوا جميعاً في

مكة خصوصاً جوار البيت العتيق. وقصي هذا كان رجلاً فذاً ؛ يدرك من الأمور أسلمها، ومن الغايات أقربها منالاً، ومن الطرق إلى الغايات أكثرها استقامة.

وولد قصي بن كلاب أربعة نفر وامرأتين ؛ عبد مناف بن، وعبد الدار، وعبد العزى، وعبد قصي، وتخمر، وبرة، وأمهم حُبَّى بنت حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعي. وكان ابنه عبد مناف قد شرف وساد في حياته، وكان عبد الدار يكره ذلك، فقال له قصي: لألحقنك بالقوم وإن شرفوا عليك، فأوصى له بما كان يليه من مصالح، فأعطى له دار الندوة، والحجابة، واللواء والسقاية والرفادة.

وكان قصي لا يخالف ولا يرد عليه شئ صنعه، وكان أمره في حياته وبعد موته كالدين المتبع ، ولما مات قصي أقام بنوه أمره، واتبعوا سيرته دون نزاع بينهم، ولكن لما هلك عبد مناف نافس أبناؤه بني عمهم عبد الدار في هذه المناصب السابقة، واقتسموها وكاد يكون بينهم قتال، إلا أنهم قد تداعوا إلى الصلح، فصارت السقاية والرفادة إلى بني عبد مناف، وبقيت دار الندوة واللواء والحجابة بيد بني عبد الدار، ثم حكم بنو عبد مناف القرعة فيما أصابهم فخرجت لهاشم بن عبد مناف، فكان هو الذي يباشر السقاية والرفادة طوال حياته.

هاشم بن عبد مناف:

هاشم بن عبد مناف هو الجد الثالث للرسول الأكرم ﷺ وقد سماه أبواه " عمرو العلا "، وكلمة " عمرو " يسمى بها الأبوان أحد أولادهما

تفاؤلاً، حيث هب علماء اللغة إلى أن كلمة " عمرو " بفتح العين تشير إلى طول البقاء، فهي كالعمر بضم العين، واستشهدوا لذلك بقول الشاعر أبي القماقم:

يا رب زد من عمره في عمري واستوف مني يا إلهي تدري

وظل هذا الاسم ملاحقاً به في أسرته وبين أقرانه، حتى شاءت الأقدار أن تمنح عمراً لقب " هاشم ". وكما تشير كتب السيرة أن معنى كلمة " هاشم" وهو الذي يهشم الشئ اليابس والأجوف، وعمرو العلا عندما صار رجلاً راشداً كان يهشم الخبز ويضع عليه الحساء أو المرق، حتى يمكن استساغه، ثم يضع اللحم فوقه، ويكون هو القِرى الذي يقدمه لضيفانه أو يقدمه لضيوف بيت الله الحرام.

وكان هاشم أول من سن الرحلتين لقريش ؛ رحلة الشتاء، ورحلة الصيف، وفيه يقول الشاعر:

عمرو الذي هشم الثريد لقومه قوم بمكة مسنتين عجاف

سنت إليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الأصياف

والواضح لنا أن مظاهر الجفاء والخلاف بين الأخوة من أبناء عبد مناف قد ظهرت مبكراً، وهذا ما اعتدنا قراءته في كتب السيرة النبوية، وكما تشير كل كتب السيرة النبوية أن هاشماً وعبد شمس ولدا توأمين، وكان أولهما خروجاً إلى الدنيا " هاشم" حتى رئي ملتصقاً بجبهة أخيه، أو بجزء من جسمه، وأنا أرى أن الموضوع لا يهم التصاق ولد بأخيه لتفسير وتحليل أمور وقعت بعد ذلك في المستقبل بعلة قديمة، لكن هذا ما جاء بكتب

القدماء. المهم أن القابلة حينما عمدت وشرعت إلى نزعهما سال بينهما الدم، فقال الناس إنه سيكون بين هذين أو بين عقبيهما عداء ودماء.

وإن صحت الواقعة كما ترويها كتب السيرة، فإن الرواة لم يذكروا شيئاً محدداً عن المشاركين في هذه الحادثة، كاسم القابلة مثلاً أو عشيرتها، أو من هم الناس الذين قالوا هذه العبارة السابقة، وبالرغم من وقوع بعض هذا التأويل إلا أنه لماذا لم تظهر رؤية أو محاولة تفسير مغايرة توضح أنه سيكون بينهما صهر ونسب وزواج وتضحية.

وقد روى البلاذري عن هشام بن مُحَمَّد السائب قال: كان أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ذا مال فتكلف أن يفعل كما فعل هاشم في إطعام قريش، فعجز عن ذلك، فسئمت به أناس من قريش وعابوه لتقصيره فغضب ونافر هاشماً على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة وإجلاء عشر سنين، وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي، وهو جد عمرو بن الحميق، وكان منزله عُسفان. وكان مع أمية أبو همهمة بن عبد العزى الفهري، وكانت ابنته عند أمية، فقال الكاهن: والقمر الباهر والكوكب الزاهر والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعلم مسافر، في منجد وغائر، لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر، أول منها وآخر، وأبو همهمة بذلك خابر". فأخذ هاشم الإبل، فنحرها وأطعم لحمها من حضر، وخرج أمية إلى الشام فأقام فيها عشر سنين، وكانت تلك أول عداوة وقعت بين بني هاشم وأمية.

وتؤكد الأخبار الواردة في سيرة ابن إسحاق وابن هشام أن هاشماً تمتع بخبرة اقتصادية وحكمة اجتماعية بالغة الأثر، فحينما أدرك هاشم الضعف

الاقتصادي في قومه ارتحل إلى بلاد الشام ليشتري من هناك بعض الدقيق وما يصلح معه من أسباب المعايش لقومه. ورُوي عنه وهو ببلاد الشام أنه كان يذبح كل يوم شاة ويعمد إلى الخبز فيهشمه، ثم يأتي إليه بالشلة ومرقها فيصبه على الخبز المهشم ثم يضع عليه اللحم ويقدمه ثريداً لمن معه، ولمن يقصدونه.

ولقد شاء الله أن يموت هاشم بعيداً عن موطنه، وذلك في إحدى رحلاته إلى بلاد الشام حيث قضى نحبه هناك، ومات ودفن على أرجح الروايات والأخبار بمدينة " غزة " سنة ٥١٠ ميلادية وكان أول من يموت من أبناء عبد مناف. وكما مات هاشم غريباً فقد شاء الله أن يموت جميع إخوته غرباء عدا عبد شمس، فقد مات بمكة ودفن "بأجياد"، أما عبد المطلب فمات "بردمان " من طريق اليمن، وبعد أن مات وثب " نوفل " أخوه على أركاح عبد المطلب، فغصبه إياها، فسأل رجالاً من قريش النصرة على عمه، فقالوا: " لا ندخل بينك وبين عمك ".

فكتب إلى أخواله من بني النجار يستنجدهم، وسار خاله " أبو سعد بن عدي " في ثمانين فارساً حتى نزل بالأبطح من مكة، فتلقاه عبد المطلب فقال: " المنزل يا خال ! فقال: لا والله حتى ألقى نوفلاً "، ثم أقبل فوقف نوفل وهو جالس في الحجر مع بعض مشايخ قريش، فسل أبو سعد سيفه وقال: " ورب البيت لئن لم ترد علي ابن أخي أركاحه لأمكنن منك هذا الشيف، فقال: رددتها عليه " ، فأشهد عليه مشايخ قريش، ثم نزل على عبد المطلب قام عنده، ثم طاف بالبيت وسعى ورجع إلى المدينة.

الحياة الدينية عند العرب:

اتبع معظم العرب دعوة إسماعيل (عليه السلام) حين دعاهم إلى دين أبيه إبراهيم (عليه السلام)، فكانت تعبد الله وتوحده، وتدين له، وبقي التوحيد بعد ذلك في قلة منهم، حتى جاء " عمرو بن لحي " رئيس خزاعة، وكان قد نشأ على أمر عظيم من المعروف والصدقة والحرص على أمور الدين، فأحبه الناس، ودانوا له ظناً منهم أنه من علماء الدين، ثم سافر بعد ذلك " عمرو " إلى الشام فرأى منهم من يعبد الأوثان.

واستحسن عمرو ذلك الأمر، وظن أنه الحق ؛ لأنه اعتقد أن الشام محل الرسل والأنبياء، وقدم ومعه " هبل " وهو أحد الأصنام التي كانت تعبد بالشام وجعله في جوف الكعبة، ودعا أهل مكة إلى الشرك بالله عن طريق عبادة هذا الوثن الذي لا ينفع ولا يضر، فأجابوه ثم تبع أهل الحجاز أهل مكة في ذلك.

ومن القضايا التي تستحق الدرس والتحليل بشأن هذه الواقعة هو عدم وجود أية أخبار عن محاولات عمرو بن لحي لرد أهل العرب عن دينهم، وهل تم له الأمر بسهولة دونما مقاومة ؟ وبالتأكيد أن هذا الأمر قد أخذ منه مجهوداً كبيراً ووقتاً طويلاً، لاسيما وأن عمراً هذا حاول تغيير دين إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) في موطنه، وعند أهل البيت العتيق وولاة البيت والحرم، ومما لاشك فيه أنه لاقى الكثير من العنت والمقاومة وعدم الاقتناع بما يدعو إليه، ولكن هذا ما أغفلته معظم كتب السيرة النبوية التي أشارت إلى الحدث دون تحليله.

والأمر غريب حقاً أن يقتنع كل أهل مكة والحجاز بعبادة الأوثان والأصنام، ومع هذا كله كانوا يعظمون بيت الله الحرام، ويطوفون به، ويحجون، ويعتمرون، ويقفون بعرفة والمزدلفة، ويهدون بالبدن، ومع ذلك يشركون ويوحدون بالله في ذات الوقت، فكانت قريش وكنانة إذا أهلوا قالوا: " لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك ". وبذلك يوحدون الله تعالى ثم يدخلون معه أصنامهم، ويجعلون ملكها بيده.

ومن أقدم أصنام العرب مناة، وكانت بالمشلل على ساحل البحر الأحمر بالقرب من قديد، ثم اتخذوا اللات في الطائف، والعُزى بوادي نخلة، وكانت هذه الأوثان الثلاثة أكبرهم، ثم كثر الشرك، ويُذكر أن عمراً بن لحي كان له رئي من الجن، فأخبره بأن أصنام قوم نوح مدفونة بجدة، فأتاها، ثم أوردها تهامة، ولما جاء موعد الحج دفعها إلى القبائل والوفود، فذهبت بها إلى أوطانها. وكانت لقوم نوح (عليه السلام) أصنام قد عكفوا عليها، وقد ذكر الله (سبحانه وتعالى) خبرها في كتابه، يقول تعالى:) وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلا تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً (٢٤) ((سورة نوح / ٢٣ ـ ٢٤).

وقال في ذلك الشاعر كعب بن مالك الأنصاري:

ونسى اللات والعزى ووداً ونسلبها القلائد والشُّنوفا

والشنوف مفردها " شنف " وهو القرط.

وهذه الأسماء: ود، ويعوق ويغوث، ونسرا، هي أسماء قوم صالحين من

قوم نوح (عليه السلام)، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن أنصبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسونها أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا ذلك لكنها لم تعبد، حتى إذا هلك أولئك النفر عُبدت، وقد ذكر الطبري هذا المعنى وزاد فيه من جانب رؤيته بقوله: " أن سواعاً كان ابن شيث، وأن يغوث كان ابن سواع، وكذلك يعوق ونسر، كلما هلك الأول صورت صورته، وعظمت لموضعه من الدين، ولما عهدوا في دعائه من الإجابة، فلم يزالوا هكذا حتى خلقت الخلوف، وقالوا: ما عظم هؤلاء آباؤنا إلا أنها لأنها ترزق وتنفع وتضر، واتخذوها آلهة ".

وقد اتخذ كل دار وبيت صنماً ووثناً يعبدونه، فإذا أراد الرجل أن يسافر إلى مكان أخذ يتمسح به حين يركب وكان هذا أول ما يشرع به قبل سفره وآخر فعله حينما يرجع.

الطواغيت:

كانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، وتهدى لها كما تهدى للكعبة، وتطوف بها كطوافها بها، وتنحر عندها، وهي تعرف فضل الكعبة عليها. ومن مظاهر التقرب إلى الأصنام النذر في الحرث والأنعام، يقول الله تعالى:)وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨)﴾ (سورة الأنعام / ١٣٨).

كما كانت منها البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، والبحيرة هي

بنت السائبة، والسائبة هي الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهن ذكر، سُيّبت، فلم يركب ظهرها، ولم يجز وبرها، ولم يشرب لبنها إلا ضيف، كما فُعِل بأمها، في البحيرة بنت السائبة، والوصيلة الشاة إذا أتأمت، أي جاءت باثنين في بطن واحدة، عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن، ليس بينهن ذكر جعلت وصيلة. قالوا: قد وصلت، فكان ما ولدت بعد ذلك للذكور منهم دون إناثهم، إلا أن يموت منها شئ فيشتركوا في أكله ذكورهم وإناثهم. يقول تعالى:)مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ١٠٣﴾ (سورة المائدة * ١٠٣).

الكعبة:

وإذا انطلقنا من هذا الحديث الموجز عن أصنام العرب إلى حديث آخر عن أقدس الأمكنة في شتى بقاع الأرض ألا وهي الكعبة فكانت قبل الإسلام الرمز الأشمل لحياة العرب الروحية، ولكن ارتباط العرب بالكعبة والمكانة الرفيعة التي كانت تحتلها في وجداهم تشير إلى أنه كان البيت الذي بني في أول الأمر لله، وهو الرب والإله الأعلى للعرب، وكانت حول الكعبة منطقة دائرية كان الحجاج يقومون فيها بشعيرة الطواف، أي الطواف حول البيت العتيق سبع مرات في اتجاه حركة الشمس، وكان حول الكعبة كذلك ثلاثمائة وستون صنم، أو تماثيل للأرباب، ويشير الأستاذ سيد خميس في كتابه " القصص التاريخي " إلى أن هذه الأصنام ربما كانت رموزاً طوطمية لشتى القبائل التي كانت تحج إلى البيت الحرام في الشهر المحدد لذلك.

وترى الباحثة البريطانية كارين أرمسترونج **Karen Armestrong** أن بيت الله الحرام كان يتمتع بقداسة مشتركة بين أجناس الجنس السامي، وأن الدين السومري القديم هو الذي نبعت منه فكرة الدائرة، والرموز المقامة حول الكعبة وعددها ٣٦٠ تشير إلى عدد أيام السنة السومرية المكونة من ٣٦٠ يوم، إلى جانب خمسة أيام مقدسة يقضيها الناس خارج الزمان ؛ للقيام بشعائر خاصة تربط ما بين الأرض والسماء.

وكان موسم الحج يعني بجانب الالتزام الديني ضرورة نفسية وإبداعية في الخروج عن الرتابة، والكفاح المرير من أجل الحياة، والصراع الضاري الذي تحكمه التقاليد القبلية، ففي أيام الحج لا قتال ولا اعتداء، هذا بجانب الجانب الاقتصادي التجاري، ومكة كانت من أهم أسواق ومراكز العرب التجارية السنوية.

واسم مكة من الأسماء التي دار حولها جدل واسع، وتعددت التفسيرات للاسم وتباينت، ف "جرجي زيدان" يرى أن الاسم يرجع إلى أصول بابلية أشورية، والكلمة تعني " البيت " في البابلية، وهو اسم الكعبة عند العرب. وأشار العالم اليوناني " بطليموس " باسم " ماكورابا"، أما الطبري فيرى أن اسم مكة ليست اسماً لشخص، بل اسماً لسمكة.

اليهودية:

انتشرت اليهودية في جزيرة العرب قبل الإسلام، وتكونت فيها مستعمرات يهودية، وأشهرها يثرب، وهي التي سميت بالمدينة بعد ذلك، وبالمدينة المنورة حتى وقتنا هذا. ويهود هذه المنطقة يمكن أن نقسمهم إلى

قسمين: يهود نزحوا إلى الجزيرة، وآخرين تهودوا فيها. ويشير المفكر الإسلامي أحمد أمين في كتابه " فجر الإسلام " إلى أنه كانت في القرون الأولى للميلاد مستعمرات يهودية في تيماء، وفي فدك، وفي وادي القرى، وكان يهود يثرب ثلاث قبائل: بني النضير، وبني قينقاع، وبني قريظة، كذلك عمل اليهود على نشر ديانتهم جنوبي الجزيرة حتى تهود كثير من قبائل اليمن.

ومن أشهر هؤلاء المتهودين " ذو نواس "، وقد اشتهر بتحمسه بتحمسه لليهودية آنذاك واضطهاده لنصارى نجران، وذكر المؤرخون في سبب ذلك أن يهودياً كان بنجران عدا أهلها على ابنين له فقتلوهما ظلماً، فرفع أمره إلى ذي نواس وتوسل إليه باليهودية، واستنصره على أهل نجران وهم نصارى فحمى له ولدينه وغزاهم.

وحينما سار " ذو نواس" إلى أهل نجران بجنوده دعاهم أولاً لليهودية، وخيرهم بين ذلك والقتل، لكنهم اختاروا القتل، فخدَّ لهم الأخدود، فحرق وقتل ومثَّل بهم، يقول الله تعالى:)قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) ﴾(سورة البروج* ٤ ـ ٨).

وبعض المؤرخون يظنون أن ما قام به " ذو نواس " كانت عبارة عن حركة وطنية، حيث إن نصارى نجران كانوا على ولاء مع الحبشة، والحبشة هذه الأثناء كانت حامية النصرانية في نجران، وقد اتخذت النصرانية وسيلة للتدخل في شئون اليمن، فأراد " ذو نواس " محو هذا النفوذ الحبشي.

وهؤلاء اليهود الذين نزحوا إلى بلاد العرب طفقوا ينشرون تعاليم التوراة من خلق الدنيا والبعث والحساب ودسوا فيها كعادتهم القصص والأساطير والخرافات.

النصرانية:

الحديث عن النصرانية حديث واجب ومهم ويكاد يكون ضرورياً، فإذا قلنا سابقاً إن ظهور النبي ﷺ كان استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام حينما دعا ربه:)رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) ((البقرة / ١٢٩) . فالرسول ﷺ بشارة أخيه عيسى عليه السلام كما حدث هو نفسه، فقال ﷺ: " أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة أخي عيسى ". وبشرى عيسى كما جاءت في القرآن:)وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٦) (سورة الصف/ ٦).

ويذكر ابن إسحاق أن بنجران بقايا من أهل دين عيسى بن مريم عليه السلام على الإنجيل، ويشير ابن إسحاق إليهم بقوله: " أهل فضل واستقامة من أهل دينهم "، وكان موقع أصل هذا الدين بنجران، وهي بأواسط أرض العرب في ذلك الزمان، وأهلها وسائر العرب أهل أوثان يعبدونها، وذلك أن رجلاً من بقايا أهل ذلك الدين يدعى " فيميون " وقع بين أظهرهم فحملهم عليه، فدانوا به.

وانقسمت النصرانية في ذلك العهد إلى عدة كنائس أو فرق، تسربت

منها إلى بلاد العرب فرقتان كبيرتان هما النساطرة واليعاقبة، فكانت اليعاقبة في غسان وسائر بلاد الشام، والنساطرة منتشرة في الحيرة. وقد كان بنجران كعبة يقال لها " بيعة "، وقد بناها بنو عبد المدان بن الديان الحارثي على بناء وهيئة الكعبة وسموها كعبة نجران وكان نصارى نجران على مذهب اليعاقبة وهذا يبرهن على اتصالهم بنصارى الحبشة. وكان من هؤلاء النصارى شعراء مثل " قس بن ساعدة "، و " أمية بن أبي الصلت" و "عدي بن زيد "، وفي أشعارهم وقصائدهم لمحات دينية.

ومن المؤكد أن تناحر وتشيع الفرق المسيحية وغموض تعاليمها وجفاف مادتها من أسباب إصرار العرب على عدم الدخول في المسيحية والبقاء على وثنيتهم، وبتوالي الزمن تعددت مذاهب المسيحية وانقسمت إلى أحزاب كثيرة، وقد تنكر كل حزب للحزب الآخر بسبب الخلاف في الرأي، ولعل ما كان لهذه الأحزاب والطوائف آراء ونظريات جدلية غريبة مثل أن لعيسى عليه السلام جسداً يزيد على الطيف يظهر به للناس، ومنهم من يعبد مريم، والكثير من القضايا الجدلية التي لم تجد صدراً عربياً يقبلها مثل إن المسيح عليه السلام ولد الله، يقول تعالى:) قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمْ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) (سورة يونس / ٦٨ ـ ٧٠).

هذا بالإضافة إلى قضية الثالوث والفداء التي لا تعرفها أديان السماء، وعلى حد قول الشيخ الإمام مُحَّد الغزالي: " ما سمع بها عيسى

ﷺ". ولاشك أن النصارى الأولين كانوا على عقيدة التوحيد، ويبدو أن نفراً من شياطين الإنس والجن حاولوا فتنتهم عن هذا الدين، وأرادوا أن يخلطوا بين الوحي المنزل على عيسى ﷺ، وبين تعاليم ودروس أرضية. ولاشك أن العرب قد احتاروا حقاً بين آلهة ثلاثة ووسطاء يغفرون الذنوب، يقول تعالى:) وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢)﴾ (سورة التوبة / ٣٠ . ٣٢).

وهكذا احتار العرب وغلق عليهم فهم كيف أن عيسى إله مع الله، وأن الإله الابن مساوٍ لله ذاته، ومغاير له في الوقت نفسه، يقول الله تعالى:) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً (٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً (٥)﴾ (سورة الكهف/ ٤ . ٥).

لماذا انصرف العرب عن النصرانية ؟

يجهل الكثير من الناس السبب الذي نشر النصرانية في بلاد إفريقيا وآسيا وأوروبا والأمريكتين، وجهل هذه الحقائق مضر بالمجتمع الإنساني، لأن أتباع المسيح ﷺ في هذه البلاد سوف يجدون مفاجأة تبين أنهم قد خالفوا الحق المبين. لأن عيسى ﷺ ما جاء إلا ليبين لبني إسرائيل ما خفي عليهم، ويخفف عنهم ما شددوا بهم على أنفسهم، ويردهم إلى أصول

العقيدة الصحيحة.

ونجد في متن الأناجيل المتعددة ما يوضح أن دعوة عيسى ﷺ كان دعوة خاصة جداًومحصورة في بني إسرائيل، وبالتالي فإن أتباع المسيحية اليوم قد ضلو دعوا أنفسهم بفكرة أنه مخلصهم.وقد سارت النصرانية في طريقها التطوري حتى تكونت فكرتها عن الثالوث الذي يعني عند المسيحيين الله الأب، والله الابن، والله الروح القدس، فإلى الأب ينتمي الخلق بواسطة الابن، وإلى الابن الفداء، وإلى الروح القدس التطهير.

واعتقد أهلها أن الإنسان أخطأ خطيئة كبرى عندما عصى آدم ربه في الجنة، فأخرجه الله منها عقوبة له، ثم أراد أن ينقذه فأرسل ابنه منقذاً له، يفتدي خطيئته بدمه، وكما هم يزعمون أن المسيح ﷺ صلب وسفك دمه إلا فدية لخطيئة الإنسان الأولى، والخطيئة تبقى من الإنسان، وعليه أن يشارك بدم المسيح لكي ينقذ نفسه، ومن هنا كان ما يسمى بسر القربان المقدس عندهم.يقول الله تعالى:)يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٧١) لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً (١٧٣) ((سورة النساء / ١٧١ ـ ١٧٣).

كل هذه الأسباب السابقة مجتمعة ساهمت في انصراف أهل العرب عن الدخول في المسيحية وكثرة المادلات والرؤى النظرية لمجردة التحيط بها وما صاحبها من شطط وحيرة وغموض.

أبرهة الحبشي و هدم البيت العتيق:

حاول أبرهة الحبشي أن يعبر بديانته إلى أرض جديدة، ولعلها مكة ؛ ذلك لأنه على يقين بأن لا طاعة لأهلها إلا بتدين. ففكر أبرهة بعد أن أوصى أتباعه بأن شعيرة العرب الكبرى تتمثل في هذا البيت العتيق، وأنهم يحجون إليها في كل عام.ثم قرر أن يبنى بيتاً في اليمن باسم النصرانية ويجلب إليه كل ثمين ونفيس وأبدع زينته، وبالطبع لم يكن أبرهة في غفلة ولهو حينما فكر في ذلك، بل كان هدفه هو السيطرة على العرب، لكنه لم ينجح في توجيه الناس إلى " القليس " وهي الكنيسة التي شيدها.

المهم أن أبرهة اتخذ قراراً انفعالياً عصبياً بهدم الكعبة المشرفة، وأرسل إلى مليكه أن يمده بالجند والعتاد والعدد كي يحقق هدفه بهدم بيت الله الحرام، وتحرك إلى الشمال قاصداً مكة، ولم يجد مقاومة تعترض طريقه وهو في سيره إلى مكة، حتى وصل حدودها، آمناً مطمئناً وقد جهز حرباً جديدة استخدم فيها الفيلة.

وأرسل أبرهة رجلاً من الحبشة يقال له " الأسود بن مقصود " على خيل له حتى انتهى إلى مكة، فساق إليها أموال تهامة من قريش وغيرها، فأصاب فيها مائتي بعير لرجل أرجأنا الحديث عنه لخطورته وأهميته ودوره الرئيس في السيرة النبوية، وهو كبير قريش وسيدهم، ألا وهو " عبد المطلب ".

عبد المطلب:

لسبب يجول بخاطري أرجأت الحديث عن عبد المطلب جد النبي الأكرم ﷺ، فهناك عاطفة وجدانية مضطرمة شوقاً تجاه هذا الرجل الذي سيلعب في تاريخ الإنسانية دوراً مهماً وبما تمتع به من مناقب ومآثر، ويعدد الدكتور طه حسين في كتابه " على هامش السيرة " بعضاً من مناقب عبد المطلب بقوله: " كان عبد المطلب سمح الطبع رضي النفس، سخي اليد، حلو العشرة، عذب الحديث، وكان عبد المطلب أيضاً قوي الإيمان تمتلك قلبه وتسيطر على نفسه نزعة دينية حادة عنيفة، ولكنها غامضة، يحسها ويخضع لها، ولكنه لا يتبينها ولا يستطيع لها فهماً ولا تفسيراً ".

ومكارم عبد المطلب أكثر من أن نحرها في سطور قليلة، فهو سيد قريش وشريفها، وكان جماع أمرهم وكانت له الرفادة والسقاية بعد المطلب، وهو الذي جدد حفر زمزم، وقيل إنه كان ممن حرم الخمر في الجاهلية، وتحدث فيه " مُحَمَّد بن يوسف " بقوله: "كان يعرف فيه نور النبوة وهيبة الملك ".

وولد عبد المطلب في يثرب، التي هي المدينة بعد ذلك، وبعد أن مات أبوه نشأ بين أخواله وتأثر بأخلاقهم وسار على نهجهم، ثم أخذه عمه بعد ذلك إلى بلد آخر، تجدب فيه الأرض، ولا تمطر السماء إلا القليل، وهكذا توافرت في عبد المطلب ذكاء مكة، وعزة أهلها، ودعة أهل يثرب، وكتب السيرة توضح رقة عبد المطلب مع حفيده ﷺ.

حفر بئر زمزم:

لقد عرف أهل قريش أن إسماعيل عليه السلام قد مُنح ماء زمزم، ثم ردمت

على يد " مضاض بن عمرو الجرهمي " حتى عهد عبد المطلب، وقد بحثوا وفتشوا عن ماء هذه البئر، التي ردمت أيام جرهم، وقد جاء هاتف أو منام لعبد المطلب قال له: " احفر طيبة "، فقال عبد المطلب: وما طيبة ؟. فانصرف الهاتف وانقطع الصوت.

وخرج عبد المطلب إلى بيت الله الحرام وفي نفسه دهشة وعجب، ورجاء وأمل لمعرفة حقيقة ما سمعه أو أُخبر به، وحاول أن ينام مرة أخرى، لكن النوم قد فارق وخاصم عينيه، وأخذ يمد ببصره نحو الكعبة لعله يعلم ما سمع، ثم يعود إلى منزله، ويهم المساء بالدخول، وسكن كل شئ ويهدأ، وتطمئن روحه، فيأتيه الصوت مرة جديدة: " احفر برَّة ". فتثور النفس مرة أخرى، ويسأل من جديد: " وما برَّة ؟ ". فينقطع الصوت وتعود دائرة أحداثه من جديد، فيفكر ويترقب معاودة الصوت، ويخرج للعمل ومقابلة الناس وبداخله ثورة عارمة للمعرفة والعلم بحقيقة ما سمعه، وينصرف النهار بتفاصيله ودقائقه، ويعود الليل بهدوئه وسكينته، ويأتيه الصوت مرة جديدة: " احفر المضنونة".

ما أشقى وقع الصوت على الرجل، وهو لا يعرف مصدره، أو الأخبار والأنباء التي يحملها إليه، فيسأل من جديد: " وما المضنونة؟ "، وينصرف الصوت، ويحار الرجل ماذا يفعل هل يخبر أهل البيت بما سمع ؟ أيذهب للكاهن في فناء البيت العتيق ليحدثه بهذا الأمر ؟، ولكن الرجل أقبل على مجلس قريش فدنا منهم، فتكلم وسمع، ولعل سماعه لهم كان الأقوى والأحرى وهو في هذه الحالة والمرحلة، ولما انصرف عن المجلس قال " حرب بن أمية " لمن حوله: " أرأيتم إلى سريِّ بني هاشم، إني لأراه محزوناً،

وإني لأعرف في وجهه الهم، لم يحدثنا اليوم عن مآثر أبيه ومفاخر عمه ".

ويصور لنا الدكتور طه حسين رجوع " عبد المطلب " لأهله ذلك اليوم: " ومضى الفتى إلى أهله، فلما دخل على امرأته أنكرت عودته إليها من الضحى، فاستقبلته دهشةً وهي تقول: إيه يا شيبة ما خطبك ؟ إني لأنكرك منذ أيام، أراك مورق الليل، قلق النهار، قليل الحديث، طويل التفكير، ولقد هممت أن أسألك مرات، ولكن خشيت ردك علي وانتهارك لي. تحدث، ما يحزنك ؟ أخرج عن هذا الصمت الذي لزمته". وأوضح عبد المطلب لامرأته ما به من حزن وشجون، وحيرة من أمر لا يعلمه ولا يفطنه.

وبعد أيام من إلحاح الهاتف أو الصوت على الرجل أن يقوم بحفر زمزم، فقام الرجل إلى مكانها بين إيساف ونائلة، يضرب بمعوله بحثاً عن هذا الشرف المدفون تحت التراب، والذي يصل به بآبائه إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام)، وبالطبع ما كان لأهل قريش أن تتركه يفعل هذا بالقرب من آلهتهم، بل كانت تعترض عليه بشدة، مع تيقنهم بحكمو ورجاحة تفكير عبد المطلب في عمله هذا، ولما سمعت قريش أن عبد المطلب يأمر ولده الحارث أن يدفع عنه الناس ليواصل عمله أدركت أن الرجل مصر على عمله فتركته.

وواصل عبد المطلب الحفر والعمل حتى أدرك طمياً وهو خير دليل على وجود الماء بالبئر، ففرح حتى كشف عن غزالتين من ذهب، وسيوف قلعية كانت مدفونة في مكانها منذ أيام جرهم.

ولما رأت قريش الماء قالت للرجل: إنا شركاء في الماء وفيما وجدت

من أشياء، واقترح عبد المطلب عليهم أن يضربوا على هذه الأشياء الأقداح، فوافقوه، واقترح لحكمته طريقة في ضرب الأقداح، فقال: " نخصص للبيت قدحين، ولكم قدحين، ولي قدحين ؛ متمايزة في الألوان أو بالكتابة عليها، وأخذوا في ضرب الأقداح، فخرجت للكعبة الغزالتان، وخرج للرجل السيوف، ولم يخرج لقريش شئ.

وأخذ عبد المطلب السيوف فأدخلها في صناعة باب الكعبة، وقد ظهرت حكمة عبد المطلب حينما أعلن لقريش أنه يجوز للجميع أن يشرب ويتوضأ من ماء زمزم في حوضين متمايزين أحدهما للشرب والآخر للوضوء والطهارة، لكنه لم يبح لأحد أن يغتسل من مائها أمام الكعبة حفاظاً على هيبة البيت العتيق من أن يمتهن.

بين عاطفتين:

تقتضي إرادة الله ﷻ أن تضع أناساً اختصهم الله باختبار مواقف، عادة ما يكون الفرد فيه بين عاطفتين أو أكثر، والأدلة على ذلك والشواهد كثيرة. فنوح ﷺ وضع بين عاطفتين هما الأبوة والتدين، حينما حال الموج بينه وبين ابنه، يقول تعالى:)إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح﴾ .

وقد تعرض عبد المطلب جد النبي ﷺ لمثل هذه المحنة، وهي أنه لما كان يحفر زمزم وجد نفسه قليل العدد والعز والنصرة، ولم يكن بجواره حينئذ سوى الحارث، فنذر نذراً حين لقي من قريش ما لقى: " لئن رزقني الله عشراً من الذكور لأذبحن واحدناً منهم قرباناً لله".

وأغلب المؤرخون حاولوا أن يقرنوا قصة نذر عبد المطلب بذبح أحد أولاده بقصة الذبح العظيم المرتبطة بإبراهيم ﷺ حيث إن مشروعية ذبح إبراهيم لولده إسماعيل (عليهما السلام) أمر من السماء وليس نذراً أو تحدٍ لقومه، واختبار وابتلاء من الله لعبده الخليل ﷺ، بخلاف نذر عبد المطلب لذبح أحد أولاده إن بلغن عشرة.

المهم أن الله ﷻ رزق عبد المطلب بعشرة من الأولاد، وهم: الحارث، والزبير، وجحل، وضرار، والمَقَوَّم، وأبو لهب، والعباس، وحمزة، وأبو طالب، وعبد الله. وجمعهم أبوهم ليقص عليهم فكرة النذر وأمر الذبح، وأمر الاجتماع مختلف أيضاً بين عبد المطلب وأبنائه، وبين إبراهيم وولده إسماعيل (عليه السلام) ؛ إذا أن الأخير هو ذبيح لا مفر من ذلك، أما في حالة أولاد عبد المطلب فلا أحد يدري من سيكون الذبيح.

قصة الذبيح عبد الله:

كانت الفكرة التي أملاها عبد المطلب على نبيه أن يأتي كل واحد بقدح، فيكتب اسمه فيه، ففعلوا، ثم أتوه، فدخل بهم على " هُبَل " في جوف الكعبة، وأمر المسئول عن ضرب القداح فضرب بها فخرج الذبح على قدح " عبد الله ". وأخذه عبد المطلب بيده،ة وأخذ الشفرة، وهي السكين العظيم ثم أقبل به إلى " إيساف " و " نائلة "، ووضع الشفرة عليه وهاجت قريش، فقالت وبنوه: " والله لا تذبحه أبداً ونحن أحياء حتى نعذر فيه، لئن فعلت هذا لا يزال رجل يأتي بابنه حتى يذبحه، فما بقاء الناس

على ذلك ".

وجلس الشيخ والجمع يلتفون به، وهم يقومون بواجب التسرية عنه، وهو يردد: لقد نذرت والنذر شديد "، فأشاروا عليه بأن يذهبوا إلى عرافة يقال لها " نجاح "، وقيل لها " قطبة "، وذُكِرَ أيضاً أن اسمها " سجاح "، وكانت بالحجاز، وذهبوا إليها وقصوا عليها الخبر، فقالت لهم اذهبوا هذه الساعة وائتوني غداً حتى يأتيني تابعي. ثم غدوا إليها فقالت: نعم، جاءني الخبر، فكم الدية فيكم ؟ فقالوا: عشرة من الإبل، وكانت كذلك،وقالت لهم: ارجعوا إلى بلادكم، فقدموا صاحبكم، وقدموا عشرة من الإبل ثم اضربوا عليها بالقداح، فإن خرجت القداح على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم ". ويضيف ابن إسحاق بقوله على تلك الرواية: " حتى يرضى ربكم عز وجل ".وتذكر كتب السيرة إن قصة ضرب الأقداح على عبد الله بن عبد المطلب وصلت إلى مائة من الإبل، فافتدى بها عبد المطلب ولده.

حادثة الفيل:

لازلنا نتحدث عن عبد المطلب بن هاشم وسيرته وأعماله وأفعاله، وفي سطور سابقة كنا قد وقفنا عند عزم " أبرهة " دخول مكة وهدم البيت العتيق، وبالرغم من تباين أخبار سبب هدمها من أنه حاول صرف أنظار العرب عن عبادة البيت العتيق والحج إليه، أو لأن الناس لا تذهب إلى كنيسته التي شيدها، أو لرواية ذكرها ابن إسحاق في سيرته أن رجلاً من بني ملكان بن كنانة وهو من المتشددين في العبادة يقال لهم " الحمس " قدم إلى بلاد اليمن ودخل القليس وهي كنيسة أبرهة التي بناها، ثم قضى

حاجته بداخلها، ثم دخلها أبرهة ووجد تلك العذرة فيها فقال: " من اجترأ عليَّ بذلك ؟ "، فقال له أصحابه: " هذا رجل من أهل ذلك البيت الذي يحجه العرب "، واقسم بقوله: " ونصرانيتي لأهدمن ذلك البيت ولأخربنه حتى لا يحجه حاج أبداً ".

وهناك رأي آخر يقبله كثير من المؤرخين المتأخرين زمانياً أنه لما علمت العرب أن أبرهة قد بنى كنيسة باليمن وسماها " القليس " وأراد أن يحج الناس إليها، ثارت ثائرة العرب وقرروا ألا يخضعوا لما أرادهم عليه أبرهة، فقاموا إلى القليس وأحرقوها. وأبرهة وهو في طريقه إلى البيت العتيق أصاب مائتي بعير هي لعبد الله، وطلب أبرهة في لقاء سيد قريش، فلما دخل عليه عبد المطلب أعظمه أن يجلسه تحته وهو سيد وكبير قريش، وكره أن يجلسه معه على وسادته، فنزل من عليها، وجلس على الأرض، وأجلس عبد المطلب معه.

وسأل أبرهة عبد المطلب عن طريق ترجمانه سؤالاً خبيثاً وماكراً بقوله: " ما حاجتك ؟ "، عندئذ فاجأ عبد المطلب أبرهة بقوله: " حاجتي مائتا بعير، أصابتها مقدمتك لي ".

وكأن بأبرهة يضرب كفاً بكف، وظن أنه بسؤاله الماكر هذا قد استطاع أن يحدد شخصيته وهوية عبد المطلب سيد قريش، وقيمته، وحجم ومبلغ اهتماماته.

ولم يُخْفِ أبرهة دهشته، بل قال لترجمانه أن يبلغ عبد المطلب برأيه فيه: " والله لقد رأيتك فأجبتني، ثم تكلمت فزهدت فيك ". فقال له عبد

المطلب بكلمات حاسمة حازمة: " ولمَ أيها الملِك ؟" قال أبرهة:" لأني جئت إلى بيت هو منعتكم من العرب، وفضلكم في الناس، وشرفكم عليهم، ودينكم الذي تعبدون، فجئته لأكسره، وأصيبت لك مائتا بعير، فسألتك عن حاجتك، فكلمتني في إبلك، ولم تطلب إليَّ في بيتكم ! ".

فقال له عبد المطلب: " أيها الملك إنما أكلمك في مالي، ولهذا البيت رب هو يمنعه، لست أنا منه في شئ "، فراع ذلك أبرهة، وأمر برد إبل عبد المطلب عليه.

وتحدثنا روايات السيرة النبوية أن عبد المطلب قال على الفور: " أنا رب الإبل، ولبيت رب يمنعه ويحميه، فقال أبرهة: أيمنعه مني ؟ فقال عبد المطلب بثقة الواثق المؤمن: أنت وذاك".

وبعد أن أخذ عبد الله الإبل التي ردت إليه، لم يأخذها لنفسه، بل قام بنحرها لله قرباناً له، وإصراره على ردها من عدوه ليس هدفاً للثراء والغنى، إنما إصرار على العزة والإباء والقوة النفسية.

وأمر عبد المطلب قومه بأن يصعدوا الجبال، وبقى منفرداً وحده على باب الكعبة ممسكاً به يناجي ربه ويدعوه في أدب ورجاء. ومرت الساعات قلقة مضطربة، وهم رجال أبرهة أن يوجهوا فيلهم نحو مكة، فربض، فضربوه، وكرروا التجربة مرة بعد أخرى، وحينما وجهوه نحو اليمن هرول، وتكرر هذا المشهد حتى كان مع طلوع الفجر، وحدث حينئذ ما حدث رداً على غرور بني آدم وجهلهم برب السموات والأض، فلقد طلعت عليهم الطير في صورة جماعات سود، فجعلت ترميهم بحجارة من سجيل،

وبكل منقار طائر حجر، وفي رجليه حجران فلا تقع حجرة من حجارتهم تلك على رجل إلا خرقته ومزقته وحرقته.

يقول الله تعالى:)أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥) ((سورة الفيل / ١ ـ ٥).

وهلك رجال أبرهة إلا من استبقاه الله ﷻ ليخبروا الملك بما حدث لهم، ولقدرة الله ﷻ القاهر فوق عباده أن يرسل معه طائره حتى يبلغ رسالته للملك فيسقط عليه حجر فيموت أمامه ليرى دليلاً عملياً مادياً لما حدث لجنوده.

عبد المطلب مع حفيده ﷺ:

شاء الله (تبارك وتعالى) أن يكون لعبد المطلب دور عظيم أخير في حياته، بجانب ما قام به من مكارم أفعال ومواقف سابقة، شاء أن يتعلق الرجل الشيخ بحفيده ﷺ حتى فارق الحياة الدنيا بعد أن عهد بالرسول ﷺ إلى أفضل ولده وهو أبو طالب بن عبد المطلب

وتذكر لنا كتب السيرة أنه كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً وتوقيراً وتعظيماً له، وكان رسول الله ﷺ يأتي فيجلسه جده بجواره، ويقول دعوا ابني، إن لبني هذا شأناً عظيماً. ومات عبد المطلب وقد أوصى ولده أبا طالب برسول الله ﷺ خيراً...

الفصل الخَامِسُ

صَبَاحٌ جَمِيْلٌ عَلَى مَكَّةَ

وُلِدَ الهُدى فالكَائِنَاتُ ضِياءُ:

إن الحديث عن البدايات حديث ذو شجن وسحر خاص ؛ لأن المتحدث عنه هو سيد الخلق أجمعين، ولقد ولد النبي ﷺ في فجر الاثنين لاثنتي عشر ليلة مضت من ربيع الأول الموافق العشرين من شهر أغسطس سنة ٥٧٠ ميلادية، ولأربعين سنة خلت من حكم كسرى أنوشروان خسرو بن قباذين فيروز، وذلك في المكان المعروف بسوق الليل في الدار التي صارت تدعى بدار مُحَمَّد بن يوسف الثقفي أخي الحجاج بن يوسف، وأدخل ذلك البيت في الدار حتى أخرجته الخيزران أم الهادي والرشيد فجعلته مسجداً يُصلى فيه وكانت قبل ذلك لعقيل بن أبي طالب.

وتذكر الكتب التاريخية أن الرسول ﷺ نزل على يد الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف فهي قابلته، رافعاً بصره إلى السماء، وكانت أمه تحدث أنها لم تجد حين حملت به ما تجده الحوامل من ثقل وألم.

ولأن الله ﷻ يرعى عباده المصطفين الأخيار، وينظر إليهم نظرة عطف ومودة ورحمة نقف عند واقعة جليلة نعتز بها نحن المسلمين في شتى بقاع الأرض، ونحرص أن نسردها لصغارنا وكبارنا على السواء، وهي واقعة مرضعة النبي ﷺ حليمة بنت أبي زؤيب السعدية وتكنى أم كبشة.

وتحدث حليمة السعدية أنها خرجت من بلدها مع زوجها الحارث بن عبد العزى، وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر تلتمس الرضعاء،ومعظم كتب السيرة النبوية تقص القصة دونما استثناء نقلاً عن سيرة ابن هشام، تقول القصة على لسان حليمة: " فخرجت على أتان لي قمراء معنا شارف لنا والله ما تبض بقطرة (أي لا ترشح)، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا ؛ من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذيه، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتاني تلك، فلقد أدمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا انرأة إلا وعرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه، إذا قيل لها: إنه يتيم، وذلك أنا إنما كانت النساء المرضعات ترجون المعروف من أبي الصبي، فكانت النسوة تقول: يتيم !! وما عسى أن تصنع أمه وجدُّه، فكنا نكره ذلك".

وهكذا كان حال الطفل الرضيع مُحَمَّد ﷺ، وما أشق هذه الحال، تأبى المرضعات أن تأخذه، كونه يتيماً، واليتم كما نعلم ونعي ونفطن ضعف ومذلة وقصور حيلة، ولكن يؤكد علماء نفس الطفل المعاصرين أن تعرض الطفل لمثل هذه الأحوال من شأنها أن تجعله أكثر صلابة وتحملاً لما يتعرض له من محن في المستقبل. وما أشبه الليلة بالبارحة في المقدمات والنتائج، إن حال تقلب النبي ﷺ بين العرض والرفض أشبه بحاله حينما عرض نفسه على القبائل بالطائف.

ونجد الله ﷻ دائماً مع حبيبه ورسوله ﷺ، والناظر لأول وهلة لموقف حليمة السعدية ربما يغضب منها على تفسيرها لرفض المرضعات للنبي ﷺ،

لكن هي نفسها تقدم المبرر المنطقي، أنها وغيرها يمتهن الرضاعة، سعياً وراء المال، وبعض العطايا من والد الرضيع، ولنرجع ثانيةً لقصتها مع النبي ﷺ وكيف تصور السيدة في لغة أكثر بلاغة أخذها للرسول ﷺ، تقول: " فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي ـ وربما تقصد بذلك زوجها الحارث ـ: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلأخذنه، قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة، قالت: فذهبت إليه فأخذته، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره، فلما أخذته رجعت به إلى رحلي، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى رُوِي، وأرويت أخاه، وقام أبوه إلى شارفنا ـ والشارف هي الناقة المسنة ـ تلك يلمسها، فإذا هي حافل ـ أي كثيرة اللبن ـ فحلبها، فأرواني وروى، فقال: يا حليمة والله أصبنا نسمة مباركة، ولقد أعطى الله علينا ما لم نتمن، قالت: فبتنا بخير ليلة، شباعاً، وكنا لا ننام ليلنا مع صبينا ".

الحدث نفسه، كما روته حليمة وزوجها الحارث يحمل بسطوره أكثر من سؤال وملمح، لعل أهمها ذكر لفظ الجلالة ﷻ على لسان كل منهما، وربما أكثر المتناولين للسيرة النبوية يعرضون الحادثة كما هي، أو كما جاءت في نص ابن هشام، فكلنا يعلم أن العرب قبل البعثة المحمدية كانوا علم علم وتعقل بوجود الله (تبارك وتعالى) والدليل على ذلك ذكر حليمة وزوجها لفظة ﷻ، بخلاف اسم زوجها الذي يحمل لفظة " عبد العزى "، وربما لفظ الجلالة ﷻ قسم ثابت الملامح عند العرب قديماً.

ولكن الناظر للواقعة يدرك كم هو أسعد حالاً هو وأولاده وذويه،

ولعله يدرك النعمة التي منَّ الله عليه بها، وهي نعمة الأمومة والرضاعة من صدر أمه، فهذا هو حبيبنا مُحَمَّد ﷺ تقول عنه مرضعته: " والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً "، وكيف بحال أبنائك وأنت تطمئن عليهم كل مساء، وترى ابتسامة أمهم وهي تحتضن صغارها، وكيف تنظر لحال صغارك وأنت تقرأ قول حليمة: " فما منا امرأة إلا وقد عرض رسول الله فتأباه ".

وكلمة تأبى تعني الرفض المطلق الشديد، ألا يجعلنا هذا أن نزداد عشقاً برسولنا الحبيب ﷺ.

ثم ما يجعلنا أكثر سعادة بنبينا هو بركته على السيدة حليمة وزوجها، تلك البركة التي ظهرت في إدرار ثديها، وغزارة حليبها، وقد كان لا يكفي ولدها، لقد اختار الله (تبارك وتعالى) هذا الطفل اليتيم وأخذته على مضض لأنها لم تجد سواه، فكان الخير كله فيما اختاره الله، وهذا درس لنا ـ جميعاً ـ أن تطمئن قلوبنا بقضاء الله وقدره.

شق الصدر:

تعد حادثة شق الصدر للرسول ﷺ أثناء وجوده بمضارب بني سعد من إرهاصات النبوة الأولى، ونذير خير لما سيحدث لهذا الصبي الصغير من اصطفاء واختيار له. وعود على بدء لحليمة السعدية التي تخبرنا عن القصة كاملة.

فتقول: "عندما رجعنا بعد مقدمنا بأشهر مع أخيه إذا أتانا أخوه يشتد، فقال لي ولأبيه ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب

بيض فأضجعاه فشقا بطنه، فهما يسوطانه، فخرجت أنا وأبوه نحوه، فوجدناه قائماً ممتقعا وجهه، فالتزمته والتزمه زوجي، فقلنا له: مالك يا بني ؟، قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني وشقا بطني فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو، فقالت حليمة: فرجعنا به إلى خبائنا، وقال أبوه الحارث: يا حليمة، لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به".

والناظر لسياق الحدث السابق يتبين أن حليمة وزوجها قد أحبا الصغير حباً جماً، ويظهر ذلك بوضوح في قولها " أبوه " مرتين، وهذا خير دليل على تعلقهما بهذا الصغير. والرسول ﷺ يخبرنا عن حادثة شق الصدر وما تحملها من دلائل ذات معنى، حينما سأله نفر من أصحابه فقالوا له: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك، قال: " نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة أخي عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام، واسترضعت في بني سعد، فبينا أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهما إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجاً فأخذاني فشقا بطني، واستخرجا قلبي فشقاه، فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه".

افتراءُ المستشرقين:

وكعادة المستشرقين من أعداد الإسلام وخصومه، يتناولون هذه الحادثة بمنظور أكثر غرابة، فالمستشرق فنيكولسون في كتابه (تاريخ أدب العرب)، ومير في كتابه (حياة مُحَمَّد) وغيرهما يرون أن هذه نوبة صرعية، وهذا بالطبع مردود عليه، فلم تشاهد علامات الصرع على حبيبنا مُحَمَّد ﷺ

طول عمره، وإذا كان الصرع ـ كحالة مرضية ـ يصيب صاحبه بحالات عصبية موتورة وقلق وتوتر دائم، فكيف هذا والنبي ﷺ هو النبي، والزوج، والقائد، والمصلح، والأب، والمربي، والمرشد، والنذير، وكل هذه الأدوار قام بها النبي ﷺ في وعي وجلد شديدين.

إن المستشرقين، يبذلون جهداً بشرياً مقصوراً غير عادي للنيل من النبي ﷺ، وأظن أني قد وفقت اللفظ في " بشرياً " لأن قدرة الله وقوته أبقى وأعز وأجل. كل هذا ولابد أن نعي حال هذا الصبي، الذي يتعرض لمثل هذه المواقف العصيبة، وغيرها مما ورد في كتب السيرة النبوية، مثل وفاة أمه صغيراً، كل هذا أيضاً من شأنه أن يقوي ساعد الصبي على ما ستخبره الأيام اللاحقة من عوارض، وهو ما أشار إليه جده عبد المطلب بقوله: دعوا ابني فوالله إن له شأنا".

والحكمة من هذا الشق هو الزيادة في إكرامه وإمداده ﷺ وتقويته وإعداده، ليتلقى ما سيوحى إليه بقلب قوي سليم متين في أكمل الأحوال. وشق الصدر لأنه حادث جلل غيبي يلزمنا التصديق به أولاً، والوقوف عنده طويلاً بالدرس والتحليل لاستنباط الفوائد والحكم منه، فشق الصدر من جنس ما ابتلى الله به الذبيح وصبر عليه، بل هذا أشق وأجل، لأن تلك معاريض وهذه حقيقة، وما أحوجنا هذه الأيام أن تحدث لنا حادثة ولو معنوية لشق صدونا المعتمة، إن حظ الشيطان منا عظيم في الآونة الأخيرة، في ظل الفتن والمغريات التي تنخر بنا ليل نهار، ولا راد لها سوى عصمة من الله.

وتتجلى الحكمة أيضاً من شق الصدر في القدرة على أن يمتلأ قلب

الصبي الصغير إيمانا وحكمة وزيادة في قوة اليقين، لأنه أعطي برؤيته شق صدره وعدم تأثره بذلك ما آمن معه من جميع المخاوف العادية، ولذلك كان رسولناﷺ أشجع الناس حالاً ومقاماً،ولذلك وصف النبي ﷺ بقوله تعالى:) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) ((سورة النجم /١٧).

قصة بحيرى الراهب:

بعد وفاة عبد المطلب، جد الرسول ﷺ أصبح في كفالة عمه أبي طالب، ولما بلغ رسول الله ﷺ اثنتي عشرة سنة خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام في ركب للتجارة سنة ٥٨٢ ميلادية، ولما نزل الركب " بُصْرَى " من أرض الشام، وبها راهب يقال له " بحيرى " في صومعته، وكما يقول ابن هشام في النص السابق (سيرته): " وكان إليه علم أهل النصرانية "، وقد نزل القوم به أكثر من مرة، فلا يكلمهم، ولا يعرض لعم، حتى كان ذلك العام ؛ فلما نزلوا بالقرب من صومعته صنع لهم طعاماً، ويذكر ابن هشام في نصه أنه رأى غمامة حين أظلت الشجرة التي كان القوم تحتها، وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها، فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته، ثم أرسل إليهم بأن يحضروا كلهم صغيرهم وكبيرهم وعبيدهم وحرهم.

ولاشك أن هذا الصنيع قد أثار شك رجل من القوم فتعجب وقال: " والله يا بحيرى إن لك لشأناً اليوم ما كنت تصنع هذا بنا، وقد كنا نمر بك كثيراً، فما شأنك اليوم؟ ". هكذا تعجب منه الرجل الذي لم يرد ذكر اسمه في نصي ابن إسحاق وابن هشام بالرغم من أهمية الحدث التاريخي في السيرة النبوية، وقد تخلف رسول الله ﷺ لحداثة سنه في رحال القوم تحت

الشجرة، فلما نظر بحيرى في القوم ولم ير الصفة أو العلامة الخاصة بالنبوة، قال: " يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي، فقالوا له: يا بحيرى، ما تخلف عنك أحداً ينبغي أن يأتيك إلا غلاماً هو أحدث القوم سناً. فقال: لا تفعلوا، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم ".

فقال رجل من القوم من قريش: " واللات والعزى إن هذا للؤم بنا، يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن الطعام من بيننا "، ثم قام فاحتضنه، ثم أقبل به حتى أجلسه مع القوم.

فلما رأه بحيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أجزاء من جسده، حتى إذا فرغ القوم من الطعام وتفرقوا قام بحيرى فقال له: " يا غلام أسألك باللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك عنه "، ويذكر ابن إسحاق في سيرته أن بحيرى استخدم قسم اللات والعزى لأن قومه ـ يقصد مُحَّداً ﷺ يستعملونه، فقال له مُحَّد ﷺ: " لا تسلني باللات والعزى شيئاً فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما، فقال له بحيرى: فبالله إلا أخبرتني عما أسألك به، قال: سلني عما بدا لك ".

وقد سأله بحيرى الراهب عن أشياء تتعلق بنومه وهيئته، وأموره، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده.ثم أقبل بحيرى الراهب على عمه أبي طالب فقال له: " من هذا الغلام منك ؟، قال: ابني، قال له بحيرى: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً، قال: فإنه ابن أخي، قال: فما فعل أبوه ؟ قال: مات وأمه حبلى به، قال: صدقت، ارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً، فإنه كائن

لابن أخيك هذا شأن فأسرع به إلى بلاده ".

تحليل الواقعة:

هكذا تنتهي القصة / الواقعة في نص ابن إسحاق ونص ابن هشام في سيرتهما عن الرسول ﷺ ولنا في القصة تأملات وملاحظات.

أولاً، من الملفت للناظر في سياق الواقعة التي نحن بصدد محاولة فهمها، لا تظهر شخصية أبي طالب في الواقعة الأكثر جدلاً في السيرة النبوية وهي التقاء الرسول ﷺ ببحيرى الراهب، وكيف وهو سيد قريش كما تحكي السيرة، ثانياً وأن التجارة التي سافر القوم لها بالشام هو زعيمها وصاحبها، لذا فيمكننا أن نقر بأن أبا طالب قد علم وعرف في ابن أخيه قوة الجأش والقدرة على لقاء الغرباء دونما خشية أو هيبة للموقف هذا الذي دعا مُحَمَّد ﷺ أن يذهب منفرداً للقاء بحيرى دونما شريك أو سند.

ثانياً، يستقرئ الناظر للنص السابق أن العلاقة ـ وإن كنا نصمت عن وصفها كراهة ـ بين النصارى واليهود تبدو متوترة وقلقة بعض الشئ منذ القدم، لذا فقد حذر بحيرى الراهب أبا طالب صغيره من اليهود، هذا ويضيف الدكتور مُحَمَّد علي الصلابي في كتابه " السيرة النبوية " أن بحيرى قد حذر عم النبي ﷺ من النصارى أنفسهم، وبين له أنهم إذا علموا بالنبي ﷺ سيفتكون به، بل وإنه ناشد عمه وأشياخ مكة ألا يذهبوا بالصبي إلى الروم، حيث إن الرومان كانوا على علم بأن مجئ الرسول ﷺ سيقضي على نفوذهم الاستعماري في المنطقة.

وبالرغم من أن النص السابق لابن إسحاق لم يرد فيه هذا الأمر،

لكنه تاريخياً وثقافياً فإن الرومان الذين يدينون بالنصرانية كانوا ولا شك في احتقان وكراهية لظهور الإسلام على وجه الأرض.

ثالثاً، تزداد مع الأيام ثقة أهل النبي ﷺ بدءاً بجده عبد المطلب، ومروراً بعمه أبي طالب بأن هذا الصبي سيكون له شأو كبير في المستقبل، ولعل حرص بحيرى الراهب في تذكير أبي طالب بضرورة العودة هو وابن أخيه إلى قبيلتهما قبل أن يعلم أحد بوجود هذا الصبي.

محمد ﷺ يشارك قومه:

إن الفتى مُحَّداً صار شاباً يافعاً نافعاً بإذن الله، يشارك قومه في شئونهم من قبيل هذا مشاركته ﷺ قومه في حلف الفضول ؛ ذلك الحلف الذي هدم به العرب صرح الظلم، ورفعوا به منارة الحق، وهذا الحلف هو بحق من مفاخر العرب وعرفانهم لحقوق الإنسان، وقد قال رسول الله ﷺ في هذا الحلف: " لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دعيت به في الإسلام لأجبت ".

وأيضاً اشتراكه في بناء الكعبة الشريفة حينما بلغ خمساً وعشرين سنة، وقد شارك في بنائها مع عمه العباس، وكانا ينقلان الحجارة. والقصة واضحة للجميع عند بناء الكعبة أو محاولة تجديدها، وحيرة قريش في وضع الحجر الأسود، حتى اتفقوا على تحكيم أول من يدخل عليهم من باب المسجد، وكلمة مسجد تجدها واضحة في نص ابن إسحاق بالرغم من أنها من مفردات الإسلام، وربما أن الكلمة من المواضعات التي ارتبطت بكل مكان للعبادة. ولما رضوا بذلك كان مُحَّد ﷺ أول من دخل، فلما رأوه

قالوا: " هذا الأمين قد رضينا بما قضى بيننا "، وكلنا يعلم كيف توصل النبي ﷺ إلى حل واضح بفراسته وبصيرته وفطرته النقية بأنه وضع رسول الله ﷺ الركن فيه بيديه، ثم قال: " لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوا جميعاً، فرفعوه حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه رسول الله ﷺ بيده ثم بنى عليه.

الفَصْلُ السَّادِسُ

اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكْرَم

ظاهرة الوحي:

الوحي حادث ضخم ومثير بحقيقته، ضخم بدلالته، وضخم بآثاره في حياة الإنسانية، ومن أفضل ما قرأت عن الوحي العبارة القائلة: " الوحي أعظم لحظة مرت بهذه الأرض في تاريخها الطويل ".

إن بداية الوحي في حقيقة الأمر النداء الأول للإسلام على أرض البشرية، وهذا النداء يحمل في طياته العديد من الآيات والعلامات والرؤى، ففي حادث الوحي تظهر قيمة العلم وكانته الرفيعة، ولنتدبر قول الله تعالى في أمره المباشر:)اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ((سورة العلق / ١ ـ ٥).

وظاهرة الوحي في ماهيتها حدث ذي وقع قوي وثقيل، وما يؤكد ذلك ما كان يلقاه رسول الله ﷺ من شدة وتعب وثقل عند ظهور الوحي، يقول تعالى:) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥)﴾ (سورة المزمل /٥). ورغم ذلك لقد مرأ المستشرقون يحاولون تأكيد ذاتية الوحي، واعتباره أمراً ذاتياً محضاً مرده إلى داخل النفس البشرية، ولكن الوحي استقبال وتلق لحقيقة خارجية.

وقد اجتهد العلماء في تحديد وتصنيف أنواع الوحي، ومنها الإلهام

كما قال رسول الله ﷺ: " إن روح القدس نفثت في روعي "، كما أن الوحي كان يأتي النبي ﷺ مثل صلصلة الجرس، كما جاء في الحديث الشريف حينما سأل الحارث رسول الله ﷺ: " كيف يأتيك الوحي ؟، فقال ﷺ: " أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت ما قال وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني، فأعي ما يقول ".

واعتاد الرسول ﷺ أن يخلو بنفسه قبيل وقت النبوة بغار حراء، وكما تذكر كل كتب السيرة أن هذا كان في شهر رمضان من كل عام، يطعم من جاءه من المساكين، وإذا قضى الرسول ﷺ جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به الطواف بالكعبة، قبل أن يدخل بيته، حتى إذا كان الشهر المنتظر من السنة المنتظرة الحاسمة، بل والفارقة في تاريخ البشرية، خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يفعل في الأعوام المنصرمة قبل عامه هذا، حتى إذا كانت تلك الليلة الفارقة التي أكرمه الله وأكرمنا الله معه برسالته، وكما ذكر ابن هشام في نصه: " ورحم العباد بها ".

جاءه جبريل (عليه السلام) بأمر الله تعالى، وبأمر منه، ويذكر رسول الله ﷺ ذلك في حديثه: " فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: اقرأ، قلت: ما أقرأ، قال: فغتني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قال قلت: ما أقرأ، قال: فغتني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قال: فقلت: ماذا اقرأ، ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي، فقال:)اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ((سورة العلق / ١ ـ ٥).

ولاشك أن ما حدث للرسول ﷺ لأمر جلل بلا ريب، ما أظن لبشر سواه يستطيع أن يفيق من نومه في مكان مظلم ذي طبيعة جبلية موحشة على ملك من السماء، فما أثبت قلب النبي ﷺ وما أشجعه وأقواه.

ولاشك أيضاً في أن الخلوة التي أحبها وفضلها رسولنا الكريم ﷺ مع الذكر والعبادة هي التي أنارت قلبه، وكانت نوعاً من الإعداد الخاص، وتصفية للنفس من العلائق المادية البشرية، إلى جانب ما أولاه الله (تبارك وتعالى) من رعاية خاصة هي التي جعلته يستطيع التثبت لهذا الحادث الجلل في تاريخ البشرية.

وكما ذكرنا سابقاً إنه حادث ضخم بحقيقته، وضخم بدلالته، وضخم بآثاره البشرية جميعاً، وإذا تأملنا الحداث الجلل في تاريخ البشرية لوجدناه يقر حقيقة العلم ويرفع مكانته وقدره بقوله تعالى: اقرأ.

ولقد أصيب الرسول ﷺ بالرعب والخوف مما حدث له، ومما رأه وسمعه وأحس به، فما كان عليه سوى أنه أسرع إلى بيته حيث سيدة نساء العالمين ؛ السيدة خديجة (رضي الله عنها)، وهذا إن دل فإنما يدل على أن مُحَمَّداً ﷺ لم يكن منتظراً للرسالة التي سيكلف بها وسيكون لها مبلغاً ومبشراً ونذيراً للناس وأكد الله هذا في قوله تعالى:) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ (٥٣) (سورة الشورى /٥٢ - ٥٣).

ومما لاشك فيه أن وقع نزول الوحي على نبينا مُحَمَّد ﷺ كان شديداً كما

هو هو واضح في نص ابن إسحاق، واتضح ذلك من حديث النبي ﷺ نفسه: " لقد خشيت على نفسي ". ومما يبين شدة نزول الوحي على رسول الله ﷺ ما روته أم المؤمنين السيدة عائشة (رضي الله عنها)، قالت: " ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً ".

المرأة الصالحة:

إن تعرض النبي ﷺ للوحي هو أول شدة حقيقية فارقة له، ولتاريخ البشرية من بعده، فما كان على السيدة خديجة (رضي الله عنها) كما بينا سابقاً سوى الوقوف بجانب زوجها ﷺ تدعمه وتؤيده، وصدق رسولنا الكريم ﷺ إذ يقول: " الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة ".

ومن الشرف والعزة لأي مسلم ـ حسبما نرى ـ أن يتحدث عن السيدة العظيمة خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها)، وما أقل الكتب والدراسات التي تناولت سيرتها العطرة ودورها في مؤازرة أشرف الخلق أجمعين ﷺ . والسيدة خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) امرأة حازمة جلدة شريفة، من أواسط قريش نسباً، وأعظمهم شرفاً، وكانت تدعى في الجاهلية بالطاهرة، وبسيدة قريش.

وإذا كانت السيدة الطاهرة خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) لها الدور الأول المؤثر في خدمة الدعوة الإسلامية منذ مهدها، فإن رسول الله ﷺ كان أكثر وفاءً لزوجته، ومثالاً عالياً رفيعاً لرد الجميل، وما أجمل إخلاص رسول الله ﷺ لزوجته في حياتها وحتى بعد مماتها.

فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال: " يا رسول الله،

هذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه إدام (طعام وشراب) فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها عز وجل ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب (أي من لؤلؤ وذهب) لا صخب فيه ولا نصب ".

ويذكر ابن هشام في كتابه عن السيرة النبوية ما مفاده التالي: وحدثني من أثق به أن جبريل (عليه السلام) أتى النبي ﷺ فقال: أقرئ خديجة السلام من ربها، فقال رسول الله: " يا خديجة هذا جبريل يقرئك السلام من ربك"، فقالت خديجة: "الله السلام، ومنه السلام، وعلى جبريل السلام".

هكذا كان الرد جميلاً، ثابتاً، دالاً على شخصية امرأة مؤمنة واثقة بالله، والناظر لسياق نص ابن هشام الذي أورده في سيرته يرى أن السيدة خديجة (رضي الله عنها) لم تنس أمين السماء جبريل السلام، فما أجمل التحية، وما أمتع الرد البليغ.

وتذكر السيدة عائشة (رضي الله عنها) وفاء رسول الله ﷺ للسيدة خديجة بعد وفاتها بقولها: " ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة ؟ فيقول: إنها كانت وكانت وكان لي منها الولد ".

ونقول عنها إنها أول إنسان صلى به رسول الله ﷺ، وأول من استمع إلى الوحي الإلهي من فم الرسول الكريم، وأول من آمن به، وأول من تلا القرآن الكريم بعد رسول الله ﷺ.

الفَصْلُ السَّابِعُ

الصَّبْرُ عَلَى الشَّدَائِدِ

من أشق الأمور على الإنسان أن ينصح أخاً له، أو يرشده ويبلغه بكلمة ما، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، بل يجد المرء نفسه متحرجاً في أمره هذا، ولعله يتردد، ويتريث كثيراً قبل أن يقدم على نصح وإرشاد ذويه وأهله.

إن الدرب ولا ريب وعر، والمهمة بعد السياق السابق شاقة، ونجزم بأنها تبدو مستحيلة، فما بالكم برجل واحد أمر من فوق سبع سماوات أن يدعو الناس كافة ويؤمر بنصحهم وإرشادهم، ليس هذا فقط، بل يزداد الأمر صعوبة ومشقة، إنه يدعو، ويبشر، وينهي، ويحذر، ويفصل ما أجمل، وينذر من يعصي.

إنك لو فكرت بمنطق هذا العصر، أن تنصح مثلاً زميلاً لك بالعمل من أن يحرص على الصلاة في أوقاتها، فقد يعتريك الشك بأنه سيدخل معك في مشادة كلامية. أو إذا أردت أن تنصح زوجتك بخفض صوتها عند الحديث في الهاتف مثلاً، فسوف تفكر ألف مرة قبل عرض النصيحة.

أما إذا كنت صاحب اقتراح يتعلق بشأن تطوير المؤسسة التي تعمل بها، ووجب عليك لتنفيذ ذلك الاقتراح أن تذهب لرئيسك مباشرة، مع معرفتك السابقة بأن شخص يرفض أي إصلاح أو تطوير أو تجديد،فربما

ساعتها سيقتلك التفكير في عرض الأمر، حتى تتخلى عنه تماماً.

وما أكثر قراءتنا وترديدنا لسورة المدثر، نحفظها، ونسعى لأن يحفظها أولادنا وأهلنا وتلاميذنا، وهذا بالضرورة أمر طيب وجميل ومحبب لأنفسها، لكن الأجمل والأطيب والأمتع حقاً أن نعي ما جاء في أول السورة، يقول تعالى:) يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) ((سورة المدثر / ١ ـ ٧).

فالأوامر التي جاءت في صدر السورة الكريمة تتسم بالمباشرة، والوضوح، فالأوامر الإلهية تمثلت في القيام بالإنذار، وطهارة الثياب، والتكبير لله، وغاية عدم الاستكثار بالمنة.ونأتي للآية الأخيرة البليغة الجامعة المانعة المنبئة بالمستقبل، وهي ما سيلقاه رسول الله ﷺ من المشركين، وما سيجده على حد وصف المؤرخين للسيرة النبوية من أذى المعاندين من المخالفة والاستهزاء والسخرية إلى الجد والاجتهاد في قتله، وقتل أصحابه، وإبادة كل من التف حوله من المؤمنين.

ولك أن تتصور بأن رب العزة يأمر نبيه وصفيه مُحَمَّداً ﷺ أن يصبر، وهو سبحانه وتعالى الكافي والقادر لرفع الأذى عنه، ولك أن تتخيل قدر الحمل الثقيل الذي أدركه رسول الله ﷺ منذ البداية أنه سيقدم على مهمة ثقيلة حقاً، وجهاد طويل شاق لإعلاء كلمة التوحيد إلى يوم الدين.

ولعل الآية الآمرة جاءت في سورة لها دلالة كبيرة، حيث سورة الشعراء التي تحدثت عن قصة موسى عليه السلام من بداية نبوته إلى فراره

مع بني إسرائيل، وإغراق آل فرعون ومن معه، وقد اشتملت السورة الكريمة على مراحل دعوة موسى لقومه، وما وجده منهم من تعنت وعناد وخصومة. كما تضمنت السورة تكذيب المشركين للرسل ؛ ليعلم الرسول ﷺ ومن معه ما سيحدث لهم مستقبلاً، ولكي يأخذوا بالأسباب، ويتهيأوا لها.

ولا أظن أن رجلاً في عصرنا هذا أو في العصور المنصرمة يستطيع أن يقف أمام جمع، كالجمع الذي خطب فيهم رسول الله ﷺ ، بكل شجاعة وحزم وبأس وقوة، هذا ما حدث بالضبط يوم الصفا حين دعا النبي قريش وأهل مكة إلى التوحيد وعبادة القهار المقتدر، والإيمان باليوم الآخر ودخول الإسلام.

ولما صعد رسول الله ﷺ على جبل الصفا، أخذ ينادي: " يا بني عدي، يا بني فهر، فقال حينما اجتمعوا: " أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي ؟ ".

قالوا نعم:، ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا ؟ ".

وأضاف رسول الله ﷺ القول، فقال: " يا معشر قريش، أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد، أنقذي نفسك من النار، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً، إلا أن لكم رحماً سأبلها ببلالها " (رواه مسلم ٣٠٣).

وما أن بلغ الرسول ﷺ بما أمر به من السماء حتى انفجرت مكة

بالغضب، غضب في كل مكان وبقعة، واختلفوا وتمايزوا في ابتداع أساليب وألوان شتى لمواجهة دعوة محمَّد وإلحاق الأذى به وبأهله.ولعل هذا التباين والاختلاف في صناعة العداء نتيجة الدهشة والاستغراب حينما تلقوا الإنذار، ولم يستطيعوا أن يختاروا أي درب يسيرون فيه.

وفي السطور القادمة، نوضح بعض هذه الأساليب التي تعرض لها رسول الله ﷺ ومن أتبعه من المسلمين، وكيف صبر رسول الله ﷺ على الشدائد، وكيف تحمل أذاهم، وتوكَّلَ على ربه.

في مواجهة دعوة محمد ﷺ:

وأول هذه الأساليب هو السخرية والاستهزاء، والغرض منها توهين قوى المسلمين المعنوية، وخذل رسول الله ﷺ في أصحابه، وليستحضرني حديث رسول الله ﷺ حين سأله سعد بن أبي وقاص، فقال: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء ؟ قال: " الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في في دينه رقة ابتلي حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة ".

والجانب المعنوي في هذا الأمر هو أشد وأعنف من جانبه المادي ؛ وما بالكم بهؤلاء السفهاء الذين تضاحكوا وسخروا وطعنوا في أكرم مخلوق على الأرض، وما أقوى رسول الله ﷺ في الصبر على هذا الإيذاء المعنوي. ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة في الصبر على الضراء، وفي البأساء، وحين البأس، ومن حكمة الله (تبارك وتعالى) أن جاء الحديث في القرآن

عن الصبر على الحق والاستشهاد في سبيل الله بعد ذكر جانب الأسوة الحسنة، يقول الله تعالى في محكم التنزيل:) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً (٢٢) مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) ((سورة الحزاب / ٢١ ـ ٢٣).

وكان السفهاء من قريش يسخرون من النبي ﷺ باتهامه بأنه رجل مسحور، وبأنه شاعر، وبأنه مجنون، وبأنه كاهن يأتيه الشيطان، وأنه ساحر كذاب، ومفترٍ متقول، هذا بالإضافة إلى نظرة النقمة والازدراء التي كانوا ينظرون بها إليه، كما قال الله تعالى:) وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) (سورة القلم / ٥١).

ويصف الله تعالى في كتابه العزيز كل افتراءات مشركي مكة لرسول الله ﷺ، يقول تعالى:) وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤)﴾ (سورة ص / ٤)،. وقوله تعالى:)وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) ((سورة الحجر / ٦). ولقد قص الله علينا في كتابه هؤلاء السفهاء الذين سخروا من سيد الخلق ﷺ، يقول تعالى:)إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) ((سورة المطففين /٢٩ ـ ٣٣).

ويقول رب العزة (تبارك وتعالى) واصفاً هؤلاء المستهزئين حينما بثوا دعاياتهم وافتراءاتهم الكاذبة عن رسول الله ﷺ، وحول ذاته وشخصه:) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥)﴾ (سورة الفرقان /٤ . ٥).

ولأن طبيعة العهد المكي اتسمت بالجدلية المطلقة في أحداثها، ولأن الرسالة المحمدية جاءت لتحرك الراكد والثابت الأسن، فإن أهل مكة . أنفسهم . احتاروا وهم يحاولون تشويه صورة رسول الله ﷺ وإيذاءه بالقول، فنجد مثلاً الوليد بن المغيرة وهو من زعماء قريش يقول عن رسول الله ﷺ قولا نذكر منه: " والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لغدق، وإن فرعه، لجنى، فما أنتم بقائلين شيئاً من هذا إلا عرف أنه باطل ".والذي لا يدع مجالاً للشك، أن سخرية قريش والطعن في النبي ﷺ قد أثرت في النبي كما قال الله تعالى)وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧)﴾ (سورة الحجر /٩٧)، لكن الله تعالى لم يتركه، بل قدم له الحل والعلاج القرآني الرباني السريع، يقول تعالى:)فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنْ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)﴾ (سورة الحجر /٩٨ .٩٩).

ولعل أبرز الأساليب التي واجه بها مشركو مكة رسول الله ﷺ ومن اتبعه التعذيب والتنكيل، والناظر لهذا الأسلوب يدرك أن من يستخدم القوة في مواجهة الكلمة والدعوة لهو من أضعف الناس عللا الإطلاق، ودليل دامغ على ضعف الحجة، وقلة الإدراك.

وكلنا يعلم كيف عُذب بلال بن رباح (رضي الله عنه) في سبيل الإسلام، وكيف

كان أمية بن خلف يجعل في عنقه حبلاً ويدفعه إلى الصغار يلعبون ويلهون به، ثم يأمر بالصخرة الكبيرة فتوضع على صدره، ثم يقول: " لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيقول: أحدٌ أحدٌ". حتى عثمان بن عفان (ﷺ) لم يسلم من التعذيب والإيذاء، فكان عمه يلفه في حصير من ورق النخيل ثم يدخنه من تحته.

نهايات المستهزئين:

يذكر صفي الرحمن المباركفوري في كتابه " روضة الأنوار" أن عظماء المستهزئين والمعذبين برسول الله ﷺ ومن معه خمسة: الوليد بن المغيرة المخزومي، والأسود بن بن عبد يغوث الزهري، وأبو زمعه الأسود بن عبد المطلب الأسدي، والحارث بن قيس الخزاعي، والعاص بن وائل السهمي.

ولقد أخبر الله (سبحانه وتعالى) أنه سيكفي شرهم بقوله تعالى:) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) ((سورة الحجر / ٩٥). ثم أنزل على كل رجل منهم ما فيه عبرة وعظة لمن يفكر في أن يعتدي على رسول الله ﷺ بالقول أو بالفعل.

فها هو الوليد بن المغيرة، أصيب بخدش من سهم، وكان خدشه بسيطاً حقيراً، فلم يزل يؤلمه ويؤذيه حتى ملا، وأما الأسود بن عبد يغوث فخرجت من رأسه قروح فمات منها، والأسود بن عبد المطلب فلما تضايق رسول الله ﷺ من أذاه دعا عليه، وقال: " اللهم أعم بصره "، فرماه جبريل بشوك في وجهه حتى ذهب بصره. والحارث بن قيس فأصيب بالماء الأصفر في بطنه، حتى خرجت فضلاته من فيه، فمات بها. والعاص بن

وائل فدخلت شوكة في أسفل قدمه، وجرى سمها إلى رأسه حتى مات.

أسلحة أخرى في مواجهة الدعوة:

ولم تهدأ قريش بعد قريش في ابتداع أساليب لمواجهة دعوة مُحَمَّد ﷺ ولعل بعض كتب السيرة النبوية في سياقيها التاريخي تفغل ذكر سلاح المرأة الذي استخدمه مشركو مكة في حربهم ضد الرسول ﷺ، ولعل تغافل بعض كتاب السيرة لذكر هذا أعطى المستشرقين وأنصارهم فرصة القنص والطعن من رسول الله ﷺ أكرم الخلق وسيد المرسلين، فها هي قريش تعرض على رسول الله ﷺ نساءها، يختار عشراً منهن ؛ أجملهن وأحسنهن يكن زوجات له.

وما أصلب رسول الله ﷺ الذي أدعى وافترى عليه المستشرقون ومن والاهم بأن أكرم الخلق راغب في النساء ودليلهم الباطل كثرة أزواجه، بالرغم من أن زيجاته جميعهن لعللٍ وأسباب، فرفض رسول الله ﷺ عرض قريش المُغري يوم قال له عمه أبو طالب: " يا بن أخي، إن قومك قد جاؤوني، فقالوا لي كذا وكذا، فابق عليَّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق ". فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء أنه خاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه. فقال له رسول الله ﷺ: " يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته".

سُنَّةُ الابتلاء وحكمته:

إن لله سنة في الابتلاء، وهي أن يقع الابتلاء على خاصته المؤمنين،

يقول الله تعالى:) الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) ((سورة العنكبوت / ١ . ٣). وإذا طالعنا السيرة النبوية في سياقها التاريخي استطعنا أن نستنبط الحكمة من ابتلاء الله لعباده المؤمنين بدءاً برسول الله ﷺ وانتهاء بأصغر الصحابة سناً.

فالحكمة الأولى من الابتلاء هي تزكية الفرد، فهناك اختلاف واضح وحاسم في جيل تربى على تقديم نفسه فداءً للإسلام، وجيل كجيلنا هذا، في ظل نداءات العولمة وطغيان المادية، وشيوع تيارات التغريب، والموجات الصليبية الشرسة الموجهة لشباب المسلمين عامة.

فهذا أبو بكر الصديق (ﷺ) سيد قومه وعشيرته، لقيه سفيه من سفهاء قريش، وهو عامد إلى الكعبة، فحثا على رأسه تراباً، فمر بأبي بكر الوليد بن المغيرة،وابن هشام يذكر أنه العاص بن وائل، فقال أبو بكر: " ألا ترى إلى ما يصنع هذا السفيه ؟ قال: أنت فعلت هذا بنفسك. قال: وهو يقول: أي ربِّ، ما أحلمك !، قالها ثلاثاً ".

والحكمة الثانية من سنة الله في ابتلاء خاصته الدعاية والإعلان للدعوة، فإن صبر المؤمنين والصحابة (رضوان الله عليهم) على الابتلاء بعد دعوة صامتة لهذا الدين، لأن يدخل الناس فيه، ولو وهن هؤلاء أو ضعفوا لما استجاب أحد لهذا الدين.

وهذا يذكرنا بالضرورة قصة إسلام أبي ذر الغفاري، التي قصها ابن عباس، فقال: " حتى دخل على النبي ﷺ، فسمع من قومه وأسلم مكانه،

فقال له رسول الله ﷺ: " ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري ". فقال: " والذي بعثك بالحق، لأصرخن بها بين ظهرانيهم "، فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته: " أشهد أن لا إله إلا الله، وأم محمَّداً رسول الله". ثم قام فضربوه حتى أضجعوه، فأتى العباس فأكب عليه، فقال: " ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار ؟، وأن طريق تجارتكم إلى الشام ؟ "، فأنقذه منهم. ثم عاد من الغد بمثلها فضربوه وثاروا عليه، وأكب العباس عليه كالسابقة.

حقيقة:

لقد عرضنا في هذا الفصل صوراً متعددة من صبر رسول الله ﷺ وأصحابه (رضوان الله عليهم) وكيف تعرضوا لأشد أنواع التنكيل والتعذيب، فلابد أن نؤكد على حقيقة وجوب الصبر على الابتلاء، لأنه من فقد الصبر افتتن في دينه، وارتد على عقبه، يقول تعالى:) وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١) ((سورة العنكبوت / ١٠ ـ ١١).

الفَصْلُ الثَّامِن

الهِجْرَةُ إِلَى الحَبَشَةِ

مقدمة:

إن واقعة هجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة فراراً من أذى مشركي قريش، لمن أكثر وقائع السيرة النبوية في سياقها التاريخي جدلاً، وأخصبها حديثاً. والمستقرئ للسيرة النبوية يدرك أن دوافع الهجرة إلى الحبشة ليست خافية، كما أن تحديد مكانها ـ أي الحبشة ـ يدل على وعي رسول الله ﷺ وسعة إدراكه بأساليب المشركين في مواجهة الدعوة الإسلامية. ولقد اختار الرسول ﷺ الحبشة مكاناً للهجرة بعد أن تأكد أن النجاشي حاكم الحبشة ملك عادل لا يظلم عنده أحد. ولقد أشار الرسول ﷺ إلى عدل النجاشي بقوله لأصحابه: " لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ".

ولأن الفلسفة الكامنة وراء فكرة هذا الكتاب لا تعني مباشرة بذكر أحداث السيرة النبوية وتفاصيلها التاريخية فإننا سنلقي بعض الضوء على بعض الوقائع المرتبطة بحادثة الهجرة إلى الحبشة.

الإعداد إلى الهجرة:

إن الحديث عن هجرة المسلمين إلى الحبشة لأمر شائك وشيق أيضاً ؛ فالدوافع إلى الهجرة معلومة ويمكن للناظر حصرها في بعدين لهما ثالث هما

؛ الاضطهاد الديني، والتعذيب والتكيل بالمسلمين، ولكن تفاصيل ما قبل الهجرة وأثنائها قد يحيطها قدر من الغموض، وربما نجد عتمة ونحن نتلمس أطراف هذه التفاصيل في سيرتي ابن إسحاق وابن هشام.

ولكن هناك سبب ثالث مهم جدير بالذكر والاهتمام، وهو نشر الدعوة خارج مكة، وهذا ما أشار إليه الأستاذ سيد قطب في كتابه " في ظلال القرآن "، حيث قال: " ومن ثم كان يبحث الرسول ﷺ عن قاعدة أخرى غير مكة، قاعدة تحمي هذه العقيدة وتكفل لها الحرية، ويتاح فيها أن تتخلص من هذا التجميد الذي انتهت إليه في مكة، حيث تظفر بحرية الدعوة وحماية المعتنقين لها من الاضطهاد والفتنة ".

وهذا يجعلنا نسلم بالقول بأن هجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة كانت لمهمة سامية لنصرة الدين الإسلامي وتوسيع نطاقه خارج شبه الجزيرة العربية.

ولكن يمكننا أن نقول في شأن هذه الهجرة أن معظم من هاجر إلى الحبشة لم يكونوا من أثرياء مكة، لذا قد لم تتح لهم فرصة السفر والترحال خارج مكة، ورغم أن هذه الملاحظة قد يراها البعض عيباً وقصوراً، إلا أن قلة الخبرة بالسفر جعلت هؤلاء المهاجرين الكرام يرون في هجرتهم مكرمة أولاً لأنهم يفوزون بدينهم بعيداً عن مشركي مكة، كما أن قلة الأسفار قد تكون فضلاً عند هؤلاء، لأنهم لم يخالطوا من قبل أخطار السفر والترحال والهجرة فمن ثم تكون نفوسهم وأفئدتهم مطمئنة بعض الشئ لما لم يخالطونه من مصاعب تقترن والسفر والهجرة والانتقال إلى أماكن بعيدة.

وقلة الثراء لم نكن نشير إليها لإلصاق عيب بصحابة رسول الله ﷺ، فلن يكون منا هذا أبداً، ولكن للتأكيد على أمر بالغ الأهمية، فمعظم من سافر إلى الحبشة لم يجيئها تاجراً أو كرجل موسر، إنما جاءها بدينه الذي هو عصمة أمره، وهو محض نجاته من الشرك والوثنية، وكفى بالله رفيقاً وسنداً، كما أن عظمة التمسك بدين الله تفوق عظمة امتلاك المال والنفوذ والقوة بالجاه والعتاد، وكان هذا سر نجاح هجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة.

ويمكننا أن نتلمس عبقرية أخرى لرسول الله ﷺ في اختياره للحبشة مكاناً للهجرة، وهي أن الحبشة كانت تعتبر مركزاً مهماً من مراكز التجارة، وهذا سيساعد المسلمين في العمل بعدما ضن عليهم اكتساب العيش والرزق في مكة نتيجة اضطهاد المشركين.

الغرانيق العلا:

وقف المستشرقون طويلاً أمام حديث الغرانيق، ولا شك هي وقفة حقد وكراهية للإسلام ورسوله وللمسلمين كافة، حتى حينما سئل ابن إسحاق عن حديث الغرانيق قال: " إنه من وضع الزنادقة ".

ففي رمضان سنة خمس من تاريخ النبوة، أي بعد هجرة المسلمين بحوالي ستين يوماً خلت خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام، وكان حول الكعبة نفر كبير من قريش، وكانت قد نزلت على رسول الله ﷺ سورة النجم، ولا شك أن قصة الغرانيق قصة ملفقة، ومتهافتة، دسها من دس حقداً وغلاً على الإسلام والمسلمين، وهي تعد بحق من الأساطير الخرافية التي لا ولن تليق بصاحب العصمة رسول الله ﷺ، وتتلخص في أن رسول

الله ﷺ قرأ على هؤلاء النفر سورة النجم حتى بلغ قوله تعالى:) أَفَرَأَيْتُمْ اللاَّتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى (٢٠) ((سورة النجم / ١٩ ـ ٢٠)، وقرأ بعدها ﷺ:" تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى "، قال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم، ولقد علمنا أن الله يرزق ويحيي ويميت ولكن آلهتنا تشفع عنده، فلما بلغ السجدة سجد، وسجد معه المسلمون والمشركون كلهم على السواء، إلا شيخاً من قريش ؛ رفع إلى جبهته كفاً من حصى فسجد عليه.

ومعظم من ذكر هذه الأسطورة يقول إن رسول الله ﷺ لما قالت قريش: " أما جعلت لآلهتنا نصيباً فنحن معك "، كبر عليه ذلك فجلس في بيته حتى أمسى، ثم أتاه جبريل (عليه السلام)فقرأ عليه سورة النجم، فقال جبريل (عليه السلام): أو جئتك بهاتين الكلمتين ؟، يقصد تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى، فحزن الرسول ﷺ حزناً شديداً، وخاف من ربه، فأنزل الله عليه:) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) ((سورة الحج / ٥٢).

والمستقرئ لهذه الواقعة التي لا تخرج عن كونها أسطورة من الأساطير الخرافية يتأكد على الفور أنها قصة ملفقة ومدسوسة علىلا أكرم الخلق أجمعين، ويجدها تخالف العقل والمنطق والتاريخ والسياق النبوي نفسه.

فالقاطع للشك أن الله تعالى أخبرنا بأنه تعهد حفظ قرآنه من أن يدخل عليه ما ليس منه، يقول تعالى:) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ((سورة الحجر / ٩).

ونعلم أنه ليس للشيطان حظ ونصيب من المؤمنين، فما بالكم برسول الله ﷺ، يقول الله تعالى في كتابه العزيز:) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ((سورة ص /٨٢ ـ ٨٣). وكيف هذا، ورسول الله ﷺ هو القائل لو وضعوا الشمس في يمينه والقمر في شماله على أن يترك هذا الأمر أو يموت دونه ما فعل.

والحجة الأخيرة التي نوردها ونحن في سياق الحديث عن قصة الغرانيق، تتعلق بصاحب السيرة ﷺ، فالعارف بالرسول ﷺ وحياته وصفاته وشمائله ومكارم أخلاقه يأبى صحة هذه القصة الملفقة الباطلة. فهو منذ طفولته، ومروراً بصباه وشبابه لم يجرب عليه الكذب قط، وحادثة جبل الصفا معروفة وقد تم ذكرها في ثنايا هذا الكتاب من قبل، وكان صدق النبي ﷺ مسلماً به عند الناس كافة، فهل يُعقل أن هذا الرجل الذي عُرِف بالصادق الأمين أن يقول على ربه ما لم يقل ؟.

وهل من الطبيعي أن مثل هذا الرجل بصفاته وصنائعه وطباعه يخشى الناس والله أحق أن يخشاه ؟ إن ما جاءت به قصة الغرانيق التي دسها من دس لضرب من المستحيل، ولو فكر بعض الحاقدين على الإسلام ورسوله قليلاً كيف يقول هذا رسول الله ﷺ بعد عشر سنين من بعثته، وبعد أن احتمل هو ومن معه كل صنوف وفنون الاضطهاد والتعذيب والتنكيل والمقاطعة، وقطع سبل العيش والحصار الاقتصادي.

والمنافقون الذين يربطون بين قصة الغرانيق وبين عودة المهاجرين من الحبشة، لم يعوا ويدركوا أن السبب الحقيقي والرئيس لتلك العودة هو نصرة الإسلام وعزته بإسلام حمزة وعمر بن الخطاب (رضي الله عنهما)، حتى

اضطرت قريش بقوتها وبطشها إلى مهادنة المسلمين، وحينما علمت قريش بعودة المهاجرين من الحبشة، أدركت أن شوكة الإسلام ستقوى ويعظم أمرها، ومن هنا فكرت ودبرت وضع الصحيفة التي قرروا فيها ألا يناكحوا بني هاشم، ولا يخالطونهم، كما أجمعوا أن يقتلوا رسول الله ﷺ إن استطاعوا ذلك، والله حافظٌ لنبيه.

الفَصْلُ التَّاسِع

الإسراء والمعراج

عام الحزن:

حزن النبي ﷺ كثيراً لموت زوجه السيدة خديجة (رضي الله عنها) حزناً شديداً ،ولقد عرضنا في فصول سابقة كيف كانت نعم الزوجة الوفية المخلصة لزوجها، وكيف آزرت رسول الله ﷺ طوال حياتها، وكانت مصدر طمأنينة وثبات له، وكيف تحملت مع رسول الله ﷺ كيد الخصوم، وآلام الحصار، وما أشق حال الرجل إذا مات عنه زوجه وهي تحمل صفات وشمائل امرأة كالسيدة الطاهرة خديجة (رضي الله عنها). ولقد توفيت السيدة خديجة (رضي الله عنها) قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنين، في نفس عام وفاة أبي طالب.

ومن الأمور التي تسترعي انتباه القارئ للسيرة النبوية أن أبا طالب حينما حضرته الوفاة جاءه زعماء قريش وحرضوه على الاستمساك بدينه ودين آبائه، وعدم الدخول في دين ابن أخيه مُحَمَّد، ولقد عرض عليه رسول الله ﷺ الدخول في الإسلام، قائلاً: " قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة "، فقال أبو طالب: " لولا تعيرني بها قريش يقولون إنما حمله عليها الجزع، لأقررت بها عينك "، فأنزل الله تعالى:) إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) ((سورة القصص / ٥٦).

لكن الواضح أن أفكار ومعتقدات الجاهلية كانت راسخة في عقل أبي طالب، ولم يكن من السهل تغييرها، فهو شيخ كبير طاعن في السن يصعب تغيير فكره وما ألفه عن آبائه. وبموته تضاعفت مشاعر الحزن والأسى على رسول الله ﷺ، لقد كان أبو طالب سنداً حقيقياً لرسول الله ﷺ في مواجهة كفار قريش، وبعد موته نستطيع أن نجزم القول بأن رسول الله ﷺ قد تحمل بعد موته عمه ما تنوء بحمله الجبال، وقد تكالبت عليه المحن والمتاعب، الأمر الذي فرض عليه الانتقال من بلد إلى آخر لتبليغ دعوته والتماس النصرة، فخرج إلى الطائف.

رحلة الطائف:

سعى رسول الله ﷺ إلى إيجاد مركز جديد للدعوة، وكان اختياره للطائف باعتبارها العمق الاستراتيجي لقريش، وكثيراً ما حاولت قريش قديماً أن تضمها إليها، وتوجه رسول الله ﷺ إلى الطائف يعد توجهاً مدروساً مخططاً لتطويق قريش من خارجها.

ورسول الله ﷺ يعلمنا من خلال سيرته العطرة كيف يكون التخطيط الجيد، فنحن لا نحرص أن نقرأ السيرة النبوية كسياق تاريخي محض، بل الهدف الرئيس من تعلمها وتحليلها الإفادة من رسول الله ﷺ في مجالات الدعوة والتبليغ، والتخطيط، والتعليم، وسبل الجهاد في سبيل الله.

وحرص الرسول ﷺ أن يتخذ الحيطة والحذر عند خروجه من مكة، فكان خروجه سيراً على الأقدام ؛ حتى لا يظن أهل مكة أنه يعزم الخروج من مكة فيتبعونه ويراقبونه، واختياره لشريك الرحلة يدل على عبقرية في

التخطيط، فقد اختار ﷺ زيد بن حارثة كي يرافقه في رحلته، وبتحليل هذا الموقف والاختيار نخلص إلى حقائق منها أن زيدا بن حارثة هو ابن رسول الله ﷺ بالتبني قبل أن يحرم الإسلام التبني، فإذا رأه أحد معه لن يشك في الأمر، ولن يرتاب. كما أن اختيار رسول الله ﷺ لزيد تحديداً لعلم رسول الله لما يتمتع به زيد من صدق وأمانه وإخلاص وحب لرسول الله ﷺ، فهو مأمون الجانب.

ولعل رحلة رسول الله ﷺ للطائف كانت قاسية، وكلنا يعلم كيف فعل سفهاؤها وعبيدها بالنبي وزيد، حتى توجه رسول الله ﷺ إلى ربه بالدعاء المأثور قائلاً: " اللهم إني إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك الاعتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله ".

ولأن لنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، ليس فقط في الصبر على المكاره كما ذكرنا سالفاً، إنما أيضاً في الدعاء إلى رب العباد، فقد ختم رسول الله ﷺ دعاءه بالعبارة العظيمة التي علمها لأصحابه عند حلول المكاره والمصاعب وهي " لا حول ولا قوة إلا بالله ".

ويقول الدكتور علي الصلابي إن الدعاء من أعظم العبادات، وهو سلاح فعال في مجال الحماية للإنسان وتحقيق أمنه، فمهما بلغ العقل

البشري من الذكاء والدهاء فهو عرضة للذلل والإخفاق، وقد تمر على المسلم مواقف يعجز فيها عن التفكير والتدبير تماماً، فليس له مخرج منها سوى أن يجأر إلى ربه بالدعاء، ليجد فرجاً ومخرجاً.

إن إصابة النبي ﷺ يوم عرض نفسه الشريفة على القبائل بالطائف كانت نفسية، وكانت ولا ريب شديدة قاسية، ودليلنا على ذلك دعاؤه السابق الجامع المانع.ويذكر الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه " زاد المعاد في هدي خير العباد " أن الله أرسل للنبي ﷺ ملك الجبال يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة، وهما جبلاها اللذان هي بينهما، فقال ﷺ: " لا بل أستأني بهم لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً ".

عداس النصراني:

لما لجأ رسول الله ﷺ إلى حائط لعتبة بن ربيعة وأخيه شيبة، رقّا له، فدعوا له غلاماً نصرانياً يدعى " عداساً "، وأمراه أن يقطف عنباً ويذهب به إلى رسول الله ﷺ. ففعل عداس ما أمر به، ولما وضع العنب أمام رسول الله ﷺ قل له: كل. فلما وضع رسول الله يده فيه، قال: " بسم الله "، ثم أكل. فنظر الغلام في وجهه وقال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة، فقال له رسول الله ﷺ: " ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس ؟ وما دينك ؟ ". قال عداس: نصراني، وأنا من أهل نينوى. فقال رسول الله ﷺ: " من قرية الرجل الصالح يونس بن متى "، فقال عداس: وما يدريك من يونس بن متى ؟. فقال رسول الله ﷺ: " ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي "، فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه.

وحينما علم ربيعة ورأى ما رأى من تقبيل الغلام لوجه ويد رسول الله ﷺ قال لأخيه: أما غلامك فقد أفسده عليك، ودعى عداساً فقالا له: ويلك يا عداس ! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه؟ قال: يا سيدي ما في الأرض شئ خير من هذا، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي. قالا له: ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

والقصة السابقة وردت في أكثر من نص سابق، ومعظم النصوص التي سردت الواقعة السابقة، تحدثت عن صبر رسول الله ﷺ على الشدائد، وتحمله الصعاب التي واجهها وهو يدعو القبائل للإسلام، وبعضها تحدث عن فضائل الإسلام في الطعام، كالتسمية قبل تناول الطعام والشراب. والذي يمكن أن نستخلصه من هذه الواقعة الطيبة أن الذي لفت انتباه الغلام الصغير في حديث رسول الله ﷺ هو ذكره للفظ الجلالة " الله "، وهو أمر مستغرب على أهل هذه البلاد، التي لا تعرف سوى اللات، والعزى، وهبل، ومناة، وغيرها من الأصنام التي لا تفيد ولا تنفع، ولا تسمن من جوع، ولا شك أن نطق رسول الله ﷺ للفظ الجلالة " الله " قد هز كيان الغلام، وهدهد مشاعره، الأمر الذي جعله متقبلاً ومستعداً للدخول في الإسلام، لاسيما وأنه من أهل الكتاب.

ومن أبرز معالم رحلة الرسول ﷺ إلى الطائف واقعة إسلام الجن. حقاً، إنه اليقين بالتوحيد لرب العالمين، لقد انفرد الله (سبحانه وتعالى) بعبادة الإنس والجن له، بل لقد انحصرت مهمتنا على الأرض في عبادة الله وحده، لا نشرك به شيئاً.

والواقعة تفيد أنه لما انصرف النبي ﷺ من الطائف راجعاً إلى مكة، قام

بجوف الليل يصلي، فمر به النفر من الجن الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم، فاستمعوا لتلاوة الرسول ﷺ ، فلما فرغ من صلاته، ولوا إلى قومهم مدبرين منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما استمعوا إليه من تلاوة الرسول ﷺ. وقد قص الله (تبارك وتعالى) نبأهم على النبي في سورة الأحقاف، يقول الله تعالى:) وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنْ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَولِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٣٢) (سورة الأحقاف / ٢٩ . ٣٢).

هؤلاء النفر من الجن يتلقون دعوة الرسول ﷺ في صلاته ودعائه دون أن يعلم بوجودهم، وأصبح اسم مُحَمَّد تهفو به قلوب الجن، وليس الإنس فقط، حملوا راية التوحيد، ووطنوا أنفسهم دعاة إلى الله. يقول الله تعالى في كتابه العزيز:)قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً (٢) (سورة الجن / ١ . ٢).

ولنا في رحلة رسول الله ﷺ للطائف دروس نستخلصها من الوقائع التي حدثت له أهمها الصبر على الأذى، وتحمل أعباء الدعوة والرسالة بكل قوة وجلد، والمراقبة الذاتية للنفس، وتصحيح المسار والمسلك، خوفاً من يكون هناك خلل يغضب الله تعالى، وهو ما فعله الرسول ﷺ حينما دعا

دعاءه المأثور.

ونعجب كل العجب حينما نهرول وراء التيارات والفلسفات الغربية ونؤصل لها، بل وندلل عليها ونترك سيرة رسول الله ﷺ الطيبة العطرة الخصبة بالمواقف والأحداث، ولنا فيها أسوة حسنة في الدين والدنيا معاً.

وأنا على سبيل المثال لي تجربة شخصيةن في هذا الشأن، فحينما كنت بصدد إعداد أطروحتي للحصول على درجة الدكتوراه في مجال تعليم اللغة العربية والتربية الإسلامية اخترت موضوعاً هو استراتيجيات ما وراء المعرفة، وهي جملة من الاستراتيجيات التدريسية فوق المعرفية العليا التي يستخدمها المرء في تعلمه للغة، وكانت منها استراتيجية المراقبة والتحكم، وتعني مراجعة الفرد لمساراته واختياراته وقراراته بوعي شديد، وطفقت ساعتها أفتش بين أدبيات التربية والمناهج الغربية عما يبرهن اختياراتي، وسيرة رسول الله ﷺ بين يدي، فينبغي للعاقل الراشد أن يتوجه إلى سيرة رسول الله ﷺ فيستقي منها ما شاء من علم، ومعرفة، وسلوك.

إن توجيه الله لعباده المؤمنين بضرورة الأخذ بسنة الرسول الكريم ﷺ باعتباره أسوة حسنة ليس توجيهاً اعتبارياً، بل هو توجيه مقصود، فمعظم الباحثين يوظفون العلم والمعرفة الحديثة توظيفاً دينياً، رغم أن الدين الإسلامي الحنيف هو الذي يوجه دفة العلم، ويحركها وفق ضوابطه وشريعة الله.

إن رسول الله ﷺ معلم أول، ومرشد، لا ينطق عن هوى، ولا يسلك غياً، هو محاط برعاية الله وحمايته، لا يركن ولا يتواكل، بل يفكر، ويسعى،

ويأخذ بالأسباب، ثم يترك لله النتائج، وكفى بالله مدبراً ومحيطاً..

رحلة الإسراء والمعراج:

يذكر رفاعة رافع الطهطاوي في كتابه " سيرة الرسول وتأسيس الدولة الإسلامية " أنه لما بلغ رسول الله ﷺ إحدى وخمسين سنة وتسعة أشهر، قبل الهجرة بسنة، أسري به من حجر مكة المعظم ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وهو أول القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه، ولا تنعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه ، فقد روى أبو هريرة (ﷺ)، عن النبي ﷺ قال: " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى ".

ثم عرج به من المسجد الأقصى، إلى السماوات العلى، إلى سدرة المنتهى، إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام، وكما يوضح الدكتور مُحَمَّد عمارة معنى العبارة صريف الأقلام أي صريرها وصوتها.

ولم يرد في أحاديث المعراج الثابتة أن الرسول ﷺ عُرج به إلى العرش تلك الليلة، بل لم يرد في حديث أن النبي ﷺ جاوز سدرة المنتهى، بل انتهى إليها . والله أعلم .، وقد سئل الشيخ رضي الدين القزويني (رحمه الله) عن وطء النبي ﷺ العرش بنعله، وقول الرب (ﷻ):لقد شرف العرش بنعلك يا مُحَمَّد، هل ثبت ذلك أم لا ؟ فأجاب بما نصه: " أما حديث وطء النبي ﷺ العرش فليس بصحيح، وليس بثابت، بل وصول النبي ﷺ ذروة العرش لم يثبت في خبر صحيح ولا حسن ولا ثابت أصلاً، وإنما صح في الإخبار انتهاؤه إلى سدرة المنتهى فحسب، وأما إلى ما ورائها فلم يصح، وإنما ورد

ذلك في أخبار ضعيفة أو منكرة ".

ورحلة الإسراء والمعراج معروفة ومعلومة، رواها النبي ﷺ بنفسه كما رواها البخاري ومسلم، فقال ﷺ: " بينما أنا في الحطيم مضطجع، إذ أتاني آت، فسمعته، يقول: " فشق ما بين هذه إلى هذه "، يعني من ثغرة نحره إلى عانته، " فاستخرج قلبي، ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة حكمة وإيماناً، فغسل قلبي، ثم حشى "، والحديث فيه اختصار، والأصل: فاستخرج قلبه، ثم شق، واستخرج منه علقة، وقيل هذا حظ الشيطان منك، ثم غسل بماء زمزم. وقد اختلف في تفسير الحكمة فقيل: هي العلم المشتمل على معرفة الله تعالى مع نقاء البصيرة وتهذيب النفس وتحقيق الحق للعمل به والكف عن ضده، والحكيم من حاز ذلك. وحديث الإسراء حديث يطول في بعض كتب السيرة، ولكن الذي يعنينا ونحن بصدد هذه الحادثة الفريدة أن كل هذه الأمور يجب الإيمان بها وتصديقها.

ولقد اختلف في صلاته ﷺ ليلة الإسراء بالأنبياء ؛ قيل قبل عروجه، وقيل بعده، والأول استظهره ابن حجر، وصحح الثاني ابن كثير، واختلف في هل كانت بالفاتحة أو بغيرها ؟، كما اختلف في طبيعتها، فقيل إنها الصلاة اللغوية أي الدعاء والذكر، وقيل الصلاة المعهودة، وهذا أصح، لأنه كما يذكر رفاعة رافع الطهطاوي من أن اللفظ يحمل على الحقيقة الشرعية قبل اللغوية، وإنما يحمل على اللغوية إذا تعذر حمله على الشرعية، ولم يتعذر هنا، فوجب الحمل على على الصلاة الشرعية.

ومن الأمور التي منَّ الله بها على نبيه وعلينا أجمعين فرض الصلاة، وفرض الله عليه وعلى أمة الإسلام تلك الليلة كل يوم وليلة خمسين صلاة

في أول الأمر، فما زال يراجع حتى صارت خمساً في الفعل، وخمسين في الأجر وتلك رحمة من الله وفضل كبير.

والحكمة من تخصيص فرض الصلاة بليلة الإسراء أن الرسول ﷺ لما عرج به إلى السماء رأى تلك الليلة تعبد الملائكة، منهم القائم فلا يقعد، والراكع فلا يسجد، والساجد فلا يقعد، فجمع الله تعالى ولأمته تلك العبادات في ركعة واحدة يصليها العبد بشرائطها من الطمأنينة والإخلاص، وفي اختصاص فرضها في السماء، دون سائر الشرائع فإنها فرضت في الأرض، التنبيه على مزيتها على غيرها من الفرائض.

وكما يذكر السهيلي في التنبيه على فضلها، حيث لم تفرض إلا في الحضرة المقدسة المطهرة، ولذلك كانت الطهارة من شأنها ومن شرائطها، والتنبيه على أنها مناجاة بين العبد وربه عز وجل.

جدل حول رحلة الإسراء والمعراج:

من الوقائع التي أخذت حظاً عظيماً من الجدل من بين وقائع السيرة النبوية، حادثة الإسراء والمعراج، وما إن تلتقط كتاباً واحداً من كتب السيرة النبوية إلا وتجده يفرد صفحات لهذا الجدل، والذي يمكننا أن نختصره في أمرين فقط ؛ أما الأول فهو إخبار النبي ﷺ لقريش ما رأى، فلما أصبح النبي ﷺقص على قريش ما حدث له وما رآه، فقال له المطعم بن عدي: " كل أمرك قبل اليوم كان أمما، أنا أشهد أنك كاذب، نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس، مصعداً شهراً، ومنحدراً شهراً تزعم أنت أنك أتيته في ليلة ! واللات والعزى لا أصدقك ! فقال أبو بكر (رضي الله عنه): يا مطعم،

بئس ما قلت لابن أخيك، جبهته، وكذبته، وأنا أشهد أنه صادق ". فقالوا له: " صف لنا يا مُحَمَّد بيت المقدس، كيف بناؤه ؟ وكيف هيأته ؟ ؟ وكيف قربه من الجبل "، وفي القوم من سافر إليه، فذهب ينعت لهم: " بناؤه كذا، وهيأته كذا، وقربه من الجبل كذا، وسألوه أمارة، فأخبرهم بالعير، وأنهم يقدمون الأربعاء. فلما كان ذلك اليوم لم يقدموا حتى كادت الشمس أن تغرب.

فدعا الله فحبس الشمس، وقيل وقوفها عن السير، وقيل بطء حركتها، وكان كما وصف رسول الله ﷺ فما زال ينعت لهم حتى التبس عليه النعت، فكرب كرباً ما كرب مثله، فجئ بالمسجد الأقصى وهو ينظر إليه حتى وضع دون دار عقيل أو عقال، فقالوا له: كم للمسجد من باب ؟، ولم يكن عدها، فجعل ينظر إليها ويعدها باباً باباً، وأبو بكر (رضي الله عنه) يقول: " صدقت، صدقت، أشهد أنك رسول الله "، فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب ! ". ثم قالوا لأبي بكر: أتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح ؟ قال: " نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة "، فلذلك سمي أبو بكر الصديق.

الحكمة من الإسراء إلى المسجد الأقصى:

يذكر رفاعة رافع الطهطاوي أن الحكمة من تخصيص الإسراء إلى المسجد الأقصى أن قريشاً تعرفه، فيسألونه عنه، فيخبرهم بما يعرفونه، مع علمهم أن رسول الله ﷺ لم يدخل بيت المقدس قط، فتقوم الحجة عليهم، وكذلك وقع.

وإذا كان جدل قريش مع النبي وصاحبه قد انتهى، فسرعان ما بدأ جدل آخر في كتابات المؤرخين أنفسهم حول كيفية الإسراء، ولقد اختلف المؤرخون وكتاب السيرة في كيفيته، وأغلب المفسرين والمؤرخين أجمعوا على أن الإسراء كان بالجسد، والأقلية هي التي قالت إنما كان بالروح فقط. وهناك رأي ثالث مفاده أن الإسراء كان بالجسد إلى بيت المقدس، وبالروح من بيت المقدس إلى السماوات السبع، والصحيح عند الجمهور أن الإسراء والمعراج كانا يقظة لا رؤيا، والرؤيا هي ما أفاد به كل من حذيفة وعائشة ومعاوية (رضي الله عنهم).

الأحاديث النبوية الواردة في الإسراء والمعراج:

روى البخاري ومسلم بسندهما عن أنس بن مالك أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَالَ: «أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ (وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ. يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَىٰ طَرْفِهِ) قَالَ، فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ. قَالَ، فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهِ الأَنْبِيَاءُ. ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ. ثُمَّ خَرَجْتُ. فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ. فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ. فَقَالَ جِبْرِيلُ: اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ" (صحيح مسلم، باب الإسراء برسول الله السموات وفرض الصلوات، (٢/ ١٧٠)، برقم ٣٥٦).

وروى البخاري ومسلم والترمذي وأحمد وابن حبان بسندهم عن مالك بن صعصعة "أنَّ نبيَّ اللهِ ﷺ حدَّثه عن ليلةِ أُسري به قال: بينما أن في الحَطيم ـ وربما قال في الحِجر ـ مضطجعاً، إذ أتاني آتٍ فقَدَّ ـ قال: وسمعته يقول: فشقَّ ـ ما بين هذه إلى هذه، فقلتُ للجارودِ وهوَ إلى جَنبي: ما يَعني به؟ قال: من ثُغرةِ نحرِهِ إلى شِعرَته ـ وسمعتهُ يقول من قَصِّهِ إلى شِعرته ـ

فاستخرج قلبي، ثمَّ أُتيتُ بطَسْتٍ من ذَهبٍ مملوءةٍ إيماناً، فغُسِل قلبي، ثم حُشي، ثمَّ أُعِيدَ، ثمَّ أتيتُ بدابَّة دُونَ البَغلِ وفوقَ الحمار أبيضَ . فقال له الجارودُ: هوَ البُراقُ يا أبا حمزةَ؟ قال أنسٌ: نعم . يَضَعُ خَطوَةُ عندَ أقصى طرْفهِ، فحُملتُ عليه، فانطلَقَ بي جِبريلُ حتى أتى السماءَ الدُّنيا فاستفتَح، فقيل: مَن هذا؟ قال: جِبريل. قيلَ: ومَن معك؟ قال: مُحَمَّد. قيلَ: وقد أرسِلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مَرحباً به، فنِعمَ المجيءُ جاء. ففَتَح. فلما خَلَصتُ فإذا فيها آدمُ، فقال: هذا أبوك آدمُ، فسلمْ عليه. فسلمتُ عليه، فرَدَّ السلامَ ثم قال: مَرحَباً بالابنِ الصالح والنبيّ الصالح. ثم صَعِدَ بي حتى أتى السماء الثانيةَ فاستفتحَ. قيل: مَن هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومن معك؟ قال: مُحَمَّد. قيل: وقد أُرسِلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً بهِ، فنعمَ المجيء جاء. ففَتَح. فلما خَلَصْتُ إذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة. قال: هذا يحيى وعيسى فسلمْ عليهما، فسلمتُ، فردّا، ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبيِّ الصالح. ثمَّ صعد بي إلى السماءِ الثالثة فاستَفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: مُحَمَّد. قيل: وقد أُرسلَ إليهِ؟ قال: نعم. قيل: مرَحباً به فنعمَ المجيء جاء. ففُتح، فلما خَلصتُ إذا يوسُف، قال: هذا يوسُف فسلمْ عليه، فسلمتُ عليه، فردَّ ثمَّ قال: مَرحباً بالأخ الصالح والنبيِّ الصالح، ثم صعِدَ بي حتى أتى السماء الرابعة فاستَفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومَن معك؟ قال: مُحَمَّد. قيل: أوَقد أرسِلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به فنعمَ المجيء جاء. ففتح. فلما خلصتُ فإذا إدريس، قال: هذا إدريسُ فسلم عليه، فسلمتُ عليه، فردَّ ثم قال: مَرحباً بالأخ الصالح والنبيِّ الصالح. ثم صعِدَ بي حتى أتى السماء الخامسة

فاستَفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم. قيل: وقد أُرسلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به فنعمَ المجيء جاء. فلما خلصتُ فإذا هارونُ. قال: هذا هارونُ فسلمْ عليه، فسلمتُ عليه، فردَّ ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيِّ الصالح. ثم صعِدَ بي حتى أتى السماء السادسة فاستَفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: من معك؟ قال: مُحَمَّد. قيل: وقد أرسِلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء. فلما خلصتُ فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلمْ عليه، فسلمتُ عليه، فردَّ ثمَّ قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيِّ الصالح. فلما تجاوَزتُ بكى. قيلَ له: ما يُبكيك؟ قال: أبكي لأنَّ غُلاماً بُعثَ بعدي يدخُلُ الجنةِ من أمَّتهِ أكثرُ ممن يدخُلها من أمَّتي. ثم صَعِدَ بي إلى السماء السابعة، فاستَفتحَ جبريل، قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: مُحَمَّد. قيل: وقد بُعثَ إليه؟ قال: نعم. قال: مرحباً به، ونعمَ المجيء جاء. فلما خلصتُ فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك فسلمْ عليه. قال فسلمتُ عليه، فردَّ السلام، ثمَّ قال: مرحباً بالابنِ الصالح والنبيِّ الصالح. ثم رُفعَت لي سِدرةُ المنتهى، فإذا نَبقُها مثلُ قِلالِ هَجَر، وإذا وَرقُها مثلُ آذانِ الفِيَلة. قال: هذه سِدرة المنتهى، وإذا أربعةُ أنهارٍ: نهران باطنان ونهرانِ ظاهران. فقلتُ: ما هذانِ يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهرانِ في الجنة، وأما الظاهرانِ فالنيلُ والفُرات. ثم رُفعَ لي البيتُ المعمور. ثمَّ أُتيتُ بإناءٍ من خَمر وإناءٍ من لَبَن وإناءٍ من عِسل، فأخذتُ اللبَن، فقال: هيَ الفِطرةُ التي أنت عليها وأمَّتُك. ثمَّ فُرِضت عليَّ الصلاةُ خمسينَ صلاةً كلَّ يوم، فرجَعْتُ فمرَرْتُ على موسى، فقال: بما أمِرت؟ قال: أمِرتُ بخمسينَ

صلاةً كل يوم، قال: إن أمتكَ لا تَستطيعُ خمسينَ صلاةً كل يوم، وإني والله قد جربتُ الناسَ قبلك، وعالجتُ بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجعْ إلى ربّك فاسأَلْهُ التخفيفَ لأمتك، فرجَعت، فوضعَ عني عَشراً، فرجَعتُ إلى موسى فقال مثله. فرجعتُ فوَضع عني عَشراً، فرجعتُ إلى موسى فقال مثله. فرجعت فوَضَعَ عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله. فرجعتُ فأمِرتُ بعَشرِ صلوات كلَّ يوم، فرجعتُ فقال مثله. فرجعتُ فأمِرتُ بخمس صلواتٍ كل يوم، فرجعتُ إلى موسى فقال: بما أمِرتَ؟ قلت: أمِرتُ بخمسِ صلوات كل يوم. قال: إن أمتكَ لا تستطيعُ خمسَ صلواتٍ كل يوم، وإني قد جَربتُ الناسَ قبلك، وعالجتُ بني إسرائيلَ أشد المعالجة، فارجعْ إلى ربّكَ فاسألهُ التخفيف لأمتك. قال: سألتُ رَبي حتى استحيَيتُ، ولكن أرضى وأسلم. قال: فلما جاوَزت نادَى مُنادٍ: أمضَيتُ فريضتي، وخَفَّفت عن عبادي».(صحيح البخاري، باب المعراج، (٧/٦٠٠)، برقم ٣٨٠٠).

الفَصْلُ العاشر

المُهَاجِرُ العَظِيمُ
(صَلَّىَ الله عَلَيهِ وسَلَّم)

في تاريخ الإسلام هجرتان ؛ هجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة فراراً من أذى مشركي قريش، وهي أكثر وقائع السيرة النبوية في سياقها التاريخي جدلاً، وأخصبها حديثاً. والمستقرئ للسيرة النبوية يدرك أن دوافع الهجرة إلى الحبشة ليست خافية، كما أن تحديد مكانها . أي الحبشة . يدل على وعي رسول الله (ﷺ) وسعة إدراكه بأساليب المشركين في مواجهة الدعوة الإسلامية. ولقد اختار الرسول (ﷺ) الحبشة مكاناً للهجرة بعد أن تأكد أن النجاشي حاكم الحبشة ملك عادل لا يظلم عنده أحد. ولقد أشار الرسول (ﷺ) إلى عدل النجاشي بقوله لأصحابه: " لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ".

وحديث هجرة المسلمين إلى الحبشة لأمر شائك وشيق أيضاً؛ فالدوافع إلى الهجرة معلومة ويمكن للناظر حصرها في بعدين لهما ثالث هما؛ الاضطهاد الديني، والتعذيب والتكيل بالمسلمين. ولكن هناك سبب ثالث مهم جدير بالذكر والاهتمام، وهو نشر الدعوة خارج مكة، وهذا ما أشار إليه الأستاذ سيد قطب في كتابه " في ظلال القرآن "، حيث قال: "ومن ثم كان يبحث الرسول ﷺ عن قاعدة أخرى غير مكة، قاعدة تحمي

هذه العقيدة وتكفل لها الحرية، ويتاح فيها أن تتخلص من هذا التجميد الذي انتهت إليه في مكة، حيث تظفر بحرية الدعوة وحماية المعتنقين لها من الاضطهاد والفتنة ".

وهذا يجعلنا نسلم بالقول بأن هجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة كانت لمهمة سامية لنصرة الدين الإسلامي وتوسيع نطاقه خارج شبه الجزيرة العربية.

وهجرة ثانية وهي الهجرة الخاصة بالرسول (ﷺ) إلى المدينة المنورة، وكانت هجرته خالصة لوجه ربه سبحانه وتعالى مخلصاً فيها، فهيأ الله له إخلاصه وإخلاص صديقه أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) ، وهيأ الله لهما التوفيق في الهجرة. وحين عزم رسول الله (ﷺ) على ترك مكة إلى المدينة، ألقى الوحي الكريم في قلبه وعلى لسانه هذا الدعاء الجميل: (وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيرا) (سورة الإسراء: ٨٠).

ولعل خير خبر عن حادث الهجرة وأصدقه ما رواه الصديق أبو بكر بنفسه، ولما لا، فعن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها وعن أبيها) أنها قالت: كان لا يخطئ رسول الله (ﷺ) أن يأتي بيت أبي بكر، أحد طرفي النهار إما بكرة، وإما عشيا، حتى إذا كان اليوم الذي أذن الله فيه رسوله في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهري قومه. أتانا رسول الله (ﷺ) بالهاجرة، في ساعة كان لا يأتي فيها.

قالت: فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله (ﷺ) في هذه

الساعة إلا لأمر حدث. فلما دخل، تأخر أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله (ﷺ) وليس عند رسول الله أحد إلا أنا وأختي أسماء، فقال رسول الله (ﷺ): أخرج عني من عندك ! قال: يا رسول الله، إنما هما ابنتاي. وما ذاك ؟ فداك أبي وأمي.

قال رسول الله (ﷺ): إن الله قد أذن لي بالخروج والهجرة. فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله ؟ قال: الصحبة. قالت أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها وعن أبيها): فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أباً بكر يومئذ يبكي.

ولقد روى الصديق أبو بكر ما جرى ليلة سرى مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو ما جاء في حديث البراء بن عازب (رضي الله عنه).

فقال: " أسرينا ليلتنا، حتى قام قائم الظهيرة وخلا الطريق فلم يمر فيه أحد، حتى رفعت لنا صخرة طويلة لها ظل، لم تأت عليها الشمس بعد فنزلنا عندها، فأتيت الصخرة، فسويت بيدي مكاناً ينام فيه رسول الله (ﷺ) في ظلها، ثم بسطت عليه فروة، ثم قلت: نم يا رسول الله وأنا أنفض ما حولك " (أي أحرسك وأطرف هل أرى خبراً).

فنام رسول الله (ﷺ) وخرجت أنفض ما حوله، فإذا أنا براع مقبل بغنمه على الصخرة يريد منها الذي أردنا، فقلت: " لمن أنت يا غلام ؟ "، قال: لرجل من أهل المدينة، فقلت: " أفي غنمك لبن ؟ "، قال: نعم، قلت: " أفتحلب لي " ؟. قال: نعم. فأخذ شاة، فقلت: " انفض الضرع من الشعر والتراب والقذى "، ففعل.

فأتيت النبي (ﷺ) وهو نائم، فكرهت أن أوقظه، فوقفت حتى استيقظ، فصببت على اللبن من الماء حتى برد أسفله، فقلت يا رسول الله اشرب، فشرب. ثم ارتحلنا بعد ما زالت الشمس، وأتبعنا سراقة بن مالك بن جعشم ونحن في جلد من الأرض (أي في أرض غليظة صلبة)، فقلت: يا رسول الله أتينا ؟، فقال: لا تحزن إن الله معنا، فدعا النبي (ﷺ) فارتطمت يدا فرسه إلى بطنها، أي نشبت في الأرض ولم تكن تتخلص.

وكان المسلمون قد سمعوا بالمدينة خروج النبي (ﷺ) إليها، فكانوا يخرجون كل يوم إلى الحرة أول النهار، فينتظرون قدومه الشريف، فما يردهم ويقهرهم إلا حر الشمس، وذات يوم، أوفى رجل من يهود يثرب على أطم من آطامهم لأمر ينظر فيه، فبصر به وأصحابه مبيضين، فلم يملك هذا اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب، هذا حظكم الذي تنتظرونه. فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوه (ﷺ) بظهر الحرة.

وقد روى الإمام البخاري أن النبي (ﷺ) قدم فنزل جانب الحرة، ثم بعث إلى الأنصار، فسلموا على المهاجرين الرسول (ﷺ) وصاحبه الصديق، وقالوا: اركبوا آمنين مطاعين. فركب حتى نزل جانب دار أبي أيوب. ولقد فرح أهل المدينة بمقدم الرسول (ﷺ) فرحاً شديداً، وصعد الصبية وذوات الخدور على الأجاجير يقلن:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعى لله داع

أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وخرجت جوار من بني النجار، يضربن بالدف، وهن يقلن:

نحـــن جـــوار مـــن بـــني النجـــار يا حبـــــذا محمد مـــــــن جـــــــار

ولقد قال أنس (رضي الله عنه) يوم أن خرج رسول الله (ﷺ) من مكة مرتحلاً ومهاجراً إلى المدينة: " لما خرج رسول الله (ﷺ) من مكة، أظلم منها كل شئ، فلما دخل المدينة، أضاء منها كل شئ ".

إن أدهش ما في الهجرة العظيمة تفاصيلها، ومن تفاصيلها إحاطة الله عز وجل بنبيه وصاحبه، يقول تعالى في ذكر تفاصيل الهجرة: (إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (التوبة: ٤٠).

وكم من سطور أكثر إمتاعاً تلك التي سطرها عالمنا وشيخنا الجليل الشيخ محمد الغزالي في كتابه الماتع (فقه السيرة) وهو يصور لنا حال السير والمسير في ظلمة الصحراء واصفاً هجرة النبي المختار (ﷺ) وصاحبه: " إن أسفار الصحراء توهي العمالقة الآمنين، فكيف بركب مهدر الدم مستباح الحق ؟. ما يحس هذه المتاعب إلا من صلى نارها ".

لكن النبي (ﷺ) في رعاية الله وآمنه، وكفى بالله حافظاً. أتى المهاجر العظيم (ﷺ) المدينة وهو على يقين بأن الله ناصر لدينه، فما كان عليه إلا أن يؤسس البناء المتين لمجتمع إسلامي جديد، فبنى المسجد، وآخى بين المسلمين، وحقن دماءهم القبلية، ووضع عهوداً مدنية مع اليهود.

إن ذكرى هجرة الرسول (ﷺ) تسترعي انتباهنا إلى حقيقة واحدة بجوار جملة من التفاصيل والإحداثيات والمواقف والقصص النبوية الجميلة، حقيقة أن رسولنا الكريم عظيم طيلة حياته، عظيم وهو صبي، عظيم وهو شاب يافع، عظيم وهو رجل مكتمل الرشد والرجولة، عظيم في سماحته، عظيم في يقينه بنصرة الله له، عظيم في إحسانه وبرِّه، عظيم في جهاده عظيم في كفاحه، في هجرته كان عظيماً أيضاً ، لذلك استحق النبي (صلى الله عليه وسلم) أن ينال لقب المهاجر العظيم.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر

١ . القرآن الكريم.

٢ . أبو مُحَمَّد عبد الله بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري. دار المنار للطبع والنشر . القاهرة . ٢٠٠١م . ١٤٢٢هـ.

٣ . أبو مُحَمَّد عبد الله بن هشام: السيرة النبوية . دار المنار للطبع والنشر والتوزيع . القاهرة . تحقيق مُحَمَّد شحاتة . ١٩٩٠م.

٤ . ابن إسحاق: السيرة النبوية . أخبار اليوم . القاهرة . تحقيق: طه عبد الرؤوف و بدوي طه . ١٩٩٨م . ١٤١٩هـ.

٥ . زكي الدين عبد العظيم المنذري: مختصر صحيح مسلم . دار ابن حزم . بيروت . لبنان . الطبعة الأولى . ٢٠٠١م.

ثانيا: المراجع

١ . حمزة النشرتي، عبد الحفيظ فرغلي: الابتلاء في حياة أهل البيت. دار النشرتي للطبع والنشر . القاهرة . ٢٠٠٨م.

٢ . رفاعة رافع الطهطاوي: سيرة الرسول وتأسيس الدولة الإسلامية . دار الشروق . القاهرة . تحقيق: مُحَمَّد عمارة . ٢٠١٠م.

٣ . سيد قطب: في ظلال القرآن . دار الشروق . القاهرة . الطبعة الخامسة والعشرون . ١٩٩٦م.

٤ . شمس الدين مُحَمَّد بن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد. دار الريان للتراث . القاهرة . ١٩٨٧م.

٥ . شمس الدين محمد بن قيم الجوزية: تهذيب مدارج السالكين. مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة . القاهرة . تحقيق: عبد المنعم صالح العلي . ٢٠٠٨م . ١٤٢٩هـ.

٦ . صفي الدين المباركفوري: الرحيق المختوم، بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . دار التقوى . القاهرة . ١٩٧٦م.

٧ . صفي الدين المباركفوري: روضة الأنوار في سيرة النبي المختار. وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد . الرياض . السعودية . ١٤٢٤هـ.

٨ . عبد الشافي محمد عبد اللطيف: أوائل المؤلفين في السيرة النبوية . القاهرة . وزارة الأوقاف . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . سلسلة دراسات إسلامية . العدد (١١٤) . فبراير ٢٠٠٥م.

٩ . عبد العزيز الدوري: دراسة في سيرة النبي ومؤلفها ابن إسحاق . بغداد . ١٩٦٥م.

١٠ . علي أو مليل: الخطاب التاريخي دراسة لمنهجية ابن خلدون. المركز الثقافي العربي . الدار البيضاء . المغرب . الطبعة الثالثة . ١٩٨٥م.

١١ . علي البطل: دراسات في الشعر الأموي. المنيا . الطبعة الثانية . ١٩٩٣م.

١٢ . علي العربي: أضواء على كتب السيرة النبوية . الدار التونسية للنشر . تونس . ١٩٩١م.

١٣ . علي محمد الصلابي: السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث . دار الفجر للتراث . القاهرة . الطبعة الأولى . ٢٠٠٤م.

١٤ . عماد الدين الواسطي: مختصر السيرة النبوية . الهيئة العامة لقصور الثقافة . القاهرة . تحقيق: هاني مهني طه . ٢٠١١م.

١٥ . فاروق حمادة: مصادر السيرة النبوية وتقويمها . الدار البيضاء . المغرب .

١٩٨٠م.

١٦ . مُحَمَّد الغزالي: فقه السيرة النبوية . دار الشروق . القاهرة . ٢٠٠٠م.

١٧ . مُحَمَّد حسين هيكل: حياة مُحَمَّد . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة . ١٩٩٧م.

١٨ . مُحَمَّد رضا: مُحَمَّد رسول الله ﷺ. مطبعة إحياء الكتب العربية . القاهرة . ١٩٦٦م.

١٩ . مُحَمَّد عطية الإبراشي: عظمة الرسول . القاهرة . الهيئة المصرية العامة للكتاب . ٢٠٠٢م.

٢٠ . محمود علي مراد: سيرة رسول الله ﷺ. دار الهلال . القاهرة . الطبعة الأولى . ٢٠٠٠م.

٢١ . مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية . القاهرة . ١٣٤٦هـ.

٢٢ . منير مُحَمَّد الغضبان: فقه السيرة النبوية . دار الوفاء . القاهرة . ١٩٩٧م.

المؤلف في سطور

د. بَلِيْغ حَمْدِي إسْمَاعِيْل عَبْد القَادِر

أُسْتَاذُ المَنَاهِجِ وطَرَائِق تَدْرِيْسِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ والتَّرْبِيَةِ الإسْلامِيَّةِ

عمل مُنَسِّقًا لبَرْنَامَجِ مَحْوِ الأُمِّيَّةِ وتَعْلِيمِ الكِبَارِ بِجَامِعَةِ المِنيَا

معملُ نَسِّقا البَرَامِجِ الجَدِيْدَةِ باللُّغَةِ الإنْجِلِيْزِيَّةِ بِكُلِّيَّةِ التَّرْبِيَةِ

مُدِيرُ وَحْدَةِ الابْتِكَارِ ورِيَادَةِ الأعْمَالِ ـ كُلِّيَّةُ التَّرْبِيَةِ

الكتب المنشورة :

١. اسْتراتِيْجِيَّات تَدْرِيْسِ اللُّغةِ العَرَبِيَّةِ " أطُرٌ نَظَرِيَّة ونَمَاذِج تَطْبِيقِية. دار المناهج ـ عمَّان ـ المملكة الأردنية الهاشمية (٢٠١٣).

٢. اسْتراتِيْجِيَّات تَدْرِيْسِ التَّرْبِيَةِ الدِّيْنِيَّةِ الإسْلامِيَّةِ وتَنْمِيَةِ مَهَارَاتِ التَّفْكِيْرِ . دار دجلة ـ عمان ـ المملكة الأردنية الهاشمية ـ ٢٠١٧.

٣ . فِقْهُ الخطابِ الديني المعَاصِر (هَل الدِّين والسِّياسَة لحظتان مُتَعَاقِبَتَان؟). (دار الخليج ـ عمان المملكة الأردنية الهاشمية (٢٠١٧)

٤ . القرائِنُ اللَّفْظِيةُ فِي القُرآنِ الكَرِيْمِ (دِراسَةٌ في بَلاغَة النَّصِّ القُرآنِيّ). مؤسسة الكرمة الثقافية ـ القاهرة (٢٠١٥).

٥ . الوَقَائع الجَدلية في السِّيرةِ النَّبَوِيَّةِ.. أيَّامٌ فِي صُحبة رَسُولِ اللهِ . مؤسسة الكرمة الثقافية ـ القاهرة (٢٠١٥).

٦ . الإعْلاءُ الإسْلامِيُّ للعَقْل البَشَرِيّ..دراسة في الفَلسفَات والتَّيارات الإلْحَاديَّةِ ـ وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ـ الكويت ٢٠١٢م.

٧ . ليست الدهشة وحدها جوابًا لاسمي . مؤسسة الكرمة الثقافية . القاهرة (٢٠١٢).

٨ . مقدمة في علم الاتصال الإنساني . دار نور نشر . ألمانيا ٢٠١٨م.

٩ . اِسْتِرَاتِيْجِيَّاتُ مَا وَرَاء المَعْرِفَةِ وتَنْمِيَّةُ المَهَارَاتِ اللُّغَوِيَّةِ "مَسَاقَاتٌ إجرائيةٌ لِتَدْرِيْسِ مَهَارَاتِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّة " . دار نور نشر، ألمانيا (٢٠١٧).

١٠ . مَوَاجِيدُ ومَقَامَاتُ الصُّوفِيَّةِ . دار الكتاب الصوفي . القاهرة. ٢٠١٥م.

١١ . الطَّرِيْقُ إِلَى دِمِشْق.. كُلُّ الخَيَارَاتِ تُؤدِّي بِسُورِيَةِ إلى تَل أبِيْب. دار نور نشر، ألمانيا (٢٠١٧).

١٢ . الوصايا.. إشكاليات التلقي ورهانات التأويل . دار نور نشر . ألمانيا ٢٠١٨م.

١٣ . الفتنة الصامتة.. قراءة في إشكالية التنافي المعرفي للفلسفة العربية المعاصرة. دار نور نشر . ألمانيا ٢٠١٩م.

١٤ . الجَائِحَةُ و مُسْتَقبَلُ العُلُومِ (اِسْتِشْرَافُ الإصْلاحِ العِلْمِيّ فِي الوَطَنِ العَرَبِيّ).: جلوب للنشر Globe Edit . لاتفيا / الاتحاد الأوروبي

الفهرس